سلسلة روايات الجيب

غزاه الحب

أ - ١٢١

A - 121

باربرا كارتلاند

www.rewity.com

بلا عنوان

الفصل الأول

١٨٧٣

«أنا هنا، أنا هنا.» فكرت ثيولا بذلك، ولولا الخجل لصرخت بهذه الكلمات بأعلى صوتها.

لقد كان يبدو صعباً، بشكل ما، حتى بعد مغادرتهم انكلترا، انهم سيصلون في النهاية إلى كافونيا.

كانت السفينة التي نقلتهم من مارسيليا قد وضعت مراسيها الآن فأمكنها أن ترى جموعاً محتشدة على الرصيف منتظرين استقبال كاترين.

كان يبدو لها بمثابة الحلم أن يسمح لها بالسفر مع خالها، سبتيموس بورن وابنة خالها اللايدي كاترين بورن، في هذه الرحلة التي ستنتهي بتنصيب كاترين ملكة على كافونيا.

كانت ثيولا تعلم جيداً انه ليس العطف هو الذي جعل قريبيها يحضرانها معهما، وإنما كان الأمر، ببساطة، هو أنهما لم يجدا فتاة مناسبة تقبل بالحضور معهما كوصيفة لكاترين.

ذلك أن اولئك الذين في مستوى والدي كاترين قد رفضوا بحزم ما كانا يظنان عرضه عليهم شرفاً، وذلك بقولهم انهم

لا يريدون إرسال بناتهم إلى مثل ذلك البلد النائي في اوروبا التي تعاني من الفوضى والإضطرابات.

قال خالها غاضباً وهو يفض رسالة بعد أخرى على مائدة الإفطار: «يا للحمقى الجبناء.»

كان كل جواب لطلبه ذاك يحمل نفس العذر وهو انهم لا يعتبرون كافونيا بلداً آمناً أو جميلاً تمضي فيه بناتهم سنتين أو ثلاث من صباهن.

وقالت زوجة خالها من الطرف الآخر للمائدة: «أرجو من كل قلبي أن يكون ذلك البلد هادئاً.»

فقال مؤكداً: «انها كذلك طبعاً، وكما تعلمين جيداً يا أديليد، إن كافونيا هي بلد مستقل منذ سنوات طويلة، والآن، بعد أن استقرت الأمور في اليونان تحت حكم الملك جورج، لم يعد هناك سبب للخوف على سلطة الملك فرديناند. وبعد فهاهوذا قد حكم البلاد اثنتي عشر سنة دون أية مشاكل.»

فسكتت أديليد، بينما هتفت كاترين متذمرة: «لا أريد التعرض لأي خطر، يا أبي، فأنا لا استطيع سماع صوت الرصاص.»

فأجاب: «إن شعب كافونيا مشهور بقدرته القتالية وهذا هو السبب في حذر الإمبراطورية العثمانية منهم وتركهم وحدهم، فالبلاد جبلية، ما يجعلهم يحتاجون، لغزو كافونيا إلى جيش ضخم، بما في ذلك خسارة كبيرة في الأرواح.»

فقالت ثيولا: «لقد سبق وغزا الاتراك البانيا.»

فقال خالها ببرود: «هذا شيء اعلمه تماماً، وعندما احتاج إلى معلومات منك فساطلبها بنفسي.»

فقالت: «آسفة يا خالي سبتيموس.»

فقالت أديليد: «ان ما علينا التركيز عليه حقاً هو العثور على من ترافق كاترين. يجب أن يكون لها وصيفة، وقد طلبنا ذلك من كل فتاة مناسبة لذلك.»

انزعج الوالد، فهو لا يكره شيئاً مثل أن يرفض له احد طلباً. كان قوي الشخصية ذا قسوة جعلته فظاً في معاملته لمن هو أضعف منه.

ونظرت إليه ثيولا وهي تفكر بخوف في انها لا بد ستتعرض لعقاب أليم لما سببته له من ضيق لهذا الخطأ التافه الذي اقترفته، لا لشيء إلا لينفس خالها بذلك، عما يشعر به من خيبة لرفض أولئك الناس لطلبه.

وقالت أديليد: «ما رأيك في ان نطلب ابنة السيد بييربوينت؟ صحيح انني لا احبها، لأنني أراها ذات سلوك متسرع وعلى شيء من الوقاحة، ولكن لا شك ان والديها سيرضيهما تنازلنا إذ ندعوها لمرافقة كاترين.»

فأجاب بغضب: «لا أريد المزيد من الرفض، فقد قررت ان ثيولا هي التي يجب ان ترافق كاترين.»

«ثيولا؟» هتفت أديليد بذلك بصوت ينطق بالذهول.

فقال: «لا أريد المناقشة في ذلك، فقد حزمت أمري. سترافقنا ثيولا إلى كافونيا، وستبقى هناك إلى ان نجد امرأة مناسبة اكثر منها فتأخذ مكانها.»

خافت ثيولا من أي تعليق يصدر عنها قد يضايق خالها فيغير رأيه.

وبعد أن امضت نهاراً حافلاً بالتعب والارتباك جلست ليلاً في غرفتها، حيث اخذت تناجي أباها بقولها: إنني ذاهبة

www.rewity.com

إلى كافونيا يا أبي فهل انت مسرور؟ انها ليست اليونان بل مدينة قريبة منها، واكثر أهلها من اصل يوناني. آه يا أبي، كم اتمناك معي.

كانت تمر عليها لحظات كثيرة بهذا الشكل منذ وفاة والديها ومجيئها لتعيش في قصر خالها الكئيب الخالي من البهجة في ويلتشاير حيث لخالها املاك واسعة. كان خالها احد اغنى اغنياء انكلترا، واكثرهم شحاً وبخلاً، كما ان زوجته أديليد، والتي كانت قبل زواجها تدعى اللايدي اديليد هولتز ـ ملدرستين، كانت لا تقل عنه شحاً وبخلاً.

ولم تجد ثيولا في بيتها الجديد من وسائل الراحة ما اعتادته في ذلك الكوخ الصغير الذي عاشت فيه مع والديها قبل موتهما.

كانت احياناً، عندما كانت ترتجف برداً في تلك الغرف الفسيحة غير المدفأة، تتمنى لو أنها كانت ماتت معهما، شاعرة بأن الكآبة والتعاسة يحدقان بها.

ولكنها لم تكن تعاني في قصر ويلسبورن من الآلام الصحية فقط، فقد كانت هناك القسوة العقلية التي كانت مرغمة على احتمالها، يوماً بعد يوم إلى ان تفتش، كحيوان خائف، عن مكان تختبىء فيه هرباً من المزيد من الآلام. لقد كانت تعلم، كما كانت اخبرتها أمها، مقدار الكراهية العميقة التي كان شعر بها خالها نحو ما فعلته أخته الوحيدة إذ هربت مع معلمه.

كان ما يزال يتعلم في اكسفورد عندما تعاقد أبوه مع معلم ليعطيه دروساً خاصة أثناء عطلته، إصراراً منه على أن ينجح بنيل الشهادة.

كان الاستاذ ريتشارد وارين لامع الذكاء في التاسعة والعشرين من عمره، قد اختص بتدريس اعمال مشاهير كتاب الإغريق واللاتين بكل نجاح، ما جعل عدداً كبيراً من الارستقراطيين ينجحون في نيل شهاداتهم النهائية. ورغم ثقافته، وانحداره من عائلة محترمة، لم يكن والده يرى له شاناً يذكر.

وانعكس موقفه هذا على ابنه سبتيموس الذي كان لا يقل ثورة وسخطاً عن أبيه عندما تبين ان ريتشارد وارين هذا قد وقع في غرام اخته الوحيدة اللايدي اليزابيت بورن.

واتخذ ريتشارد وارين في مثل هذه الحالة السلوك المناسب إذ دخل إلى مكتب الوالد طالباً يد ابنته. ليقابله هذا بكل انواع الشتائم، وليطرده بعد ذلك، من القصر، وتبعته اللايدي اليزابيت، وأحدث قرارها معه فعل مأساة في البيت، ومضت سنوات لم يكن مسموحاً، اثناءها، بذكر اسم اليزابيت.

وبعد أربع سنوات من فرارها وزواجهما، ولدت ثيولا، فكتبت اليزابيت إلى والديها تخبرهما بولادة حفيدة لهما.

ولكن الرسالة عادت إليها غير مفتوحة.

وفقط، عند اعلان مقتل اليزابيت وزوجها، في اصطدام قطار، زار سبتيموس، والذي كان الآن قد ورث عن أبيه، الكوخ الصغير خارج اكسفورد والذي كانا يعيشان فيه.

وهناك اخبر ثيولا التعسة الشاحبة الوجه بأنها، من الآن فصاعداً، ستعيش في منزله.

وكان سبتيموس قد تزوج عندما كان في الواحدة

والعشرين وولدت له زوجته كاترين والتي كانت اكبر من ثيولا بعام واحد.

قال لها حينذاك، بخشونة: «لا تظني أنني مسرور بإيوائك تحت سقف بيتي، فإن سلوك والدك كان بالغ الحقارة ولن اغفر له أو لأمك، أبداً ما ألحقاه باسم عائلتنا من عار.»

فسألته ثيولا بدهشة: «عار؟ ولكن أي خطأ اقترفاه باستثناء هربهما ليتزوجا؟»

«اتظنين ان ليس ثمة عار في ان تتزوج شقيقتي من رجل يحصل معيشته من وراء التعليم... رجل اسلافه من حثالة الناس؟»

فردت عليه ثيولا بحدة: «هذا ليس صحيحاً. لقد كان والدا أبي محبين، كما كانا محترمين جداً في بيدفورد شاير حيث كانا يعيشان، وأبي نفسه كان شخصية لامعة ككثيرين...»

وسكتت فجأة عندما صفعها خالها على وجهها بشدة، وهو ينفجر فيها قائلاً بعنف: «كيف تجرؤين على مجادلتي؟ فليكن هذا واضحاً لك منذ البداية، يا ثيولا، حيث انك ابنة أختي، فانا لن اسمح بأن تموتي جوعاً. ولهذا ستعيشين في منزلي، على ان تطيعيني وألاّ تأتي على ذكر أبيك أو أمك أمامي أو أمام أي كان. هل هذا مفهوم.»

وشعرت ثيولا بخدها يلتهب، ولكنها لم تضع يدها عليه، واكتفت بأن تنظر إلى خالها وهي تشعر بصدمة اكثر منها خوفاً، وذلك إزاء أول ثورة عنيفة تواجهها في

حياتها، ولكنها تعلمت أثناء الشهور التي تلت، أن خالها على استعداد لصفعها كلما ضايقته، وكثيراً ما كان يحدث هذا.

وكان يضربها أيضاً إذا ما اظهرت أي تمرد، ولم يكن هذا عذاباً فقط إذ كان يتركها ضعيفة شبه مغمى عليها، وانما كان كذلك، يكوي نفسها بنار الظلم.

ولم تكن تعرف من قبل ان من الممكن أن يحوي العالم أناساً مثل خالها وزوجته. فإذا كانت صفعات خالها مؤلمة، فإن لطمات زوجته ولومها المتواصل، كان كل ذلك اصعب مما يمكنها احتماله.

ولم تكن ثيولا قد تصورت قط ماهية العيش مع الكراهية.

فقد كان الحب يحيط بها على الدوام، الحب الذي كان يكنه والداها كل للآخر، والذي يبدو انه كان يشع حولهما كلما كانا معاً، كما كان الحب الذي كانا يسبغانه عليها يشعرها على الدوام بأنها شيء ثمين حقاً.

وبعد أشهر قلائل كانت حافلة بالعذاب، ابتدأت تتحرك في أنحاء القصر ببطء، آملة بألاّ يلحظ وجودها أحد.

حاولت انشاء صداقة مع ابنة خالها، كاترين، ولكنها وجدت ذلك صعباً. فقد ورثت كاترين طبيعة والديها الباردة الشعور، فكانت لا تكترث بأي شخص إلا إذا كان في ذلك ما يعود إليها شخصياً.

وسرعان ما وجدت ثيولا أن عليها ان تدفع أجر سكنها وطعامها في بيت خالها وذلك بأن تكون عاملة عند كاترين وبتحولها إلى خادمة خاصة لها.

فكانت تذهب وتجيء لإحضار الأشياء ونقلها وذلك منذ اللحظة التي تستيقظ فيها في الصباح، إلى ان تذهب إلى فراشها في الليل.

وكانت ترفو وتكوي ملابس كاترين، كما كان عليها أن تغسل لها اثوابها جميعها وتستمع إلى مدحها لنفسها، عالمة بأن من المتوقع منها الموافقة على كل ما تقوله ابنة خالها، وان الجدال معها هو حري بأن ينزل العقوبة على رأسها.

قالت كاترين مرة: «غالباً ما أرى أن لي ملامح إغريقية.»

ومنعت ثيولا نفسها بجهد بالغ من ان تقول ان هذا غير صحيح أبداً.

ذلك أن كاترين لم تكن تشبه أبداً الإغريقيين، بل كانت نموذجاً للفتاة الإنكليزية، كما ان تقاسيم وجهها لم تكن ذات جمال خاص.

ولكنها كانت تُعتبر حسناء لمجرد طبقتها في المجتمع، إذ تبدو في الحفلات بأتم أناقة، كما تتصرف بكبرياء تقرب من الوقاحة.

وكانت ثيولا تعرف عن بلاد الإغريق اكثر مما تعرفه عن أي مكان آخر في العالم.

ذلك أن بلاد الاغريق كانت عشق أبيها وهاجسه الوحيد، ولطالما تحدث إلى ابنته ثيولا عن أساطيرها فيريها صور شخصياتها، مشعلاً في نفسها بعض ما يشعر به من حماس نحو اكثر الحضارات المعروفة في التاريخ جمالاً.

لقد علم ريتشارد وارين ابنته، كما علم كثيرين من تلاميذه، كيف يحبون اعمال مشاهير الإغريق، قائلاً: «لا

يمكنك ان تفهمي في الحقيقة، مشاعر شعب إلا إذا تعلمت لغته.»

وهكذا تعلمت ثيولا الفرنسية والالمانية واللاتينية واليونانية، كما كانت تقرأ لوالدها اعمال كبار المؤلفين. وعندما كانا يتحدثان عنهم، كان يستمع إلى آرائها تماماً كما كان يتوقع منها ان تستمع إلى آرائه.

لم تكن تظن قط أن من الممكن أن يكون هناك رجل في أهمية خالها لم يقرأ كتاباً قط، ومع هذا كان يحكم على أي موضوع مفروغ منه دون أن يدع مجالاً لأحد بأن يجيبه.

كانت أحياناً، وهي في غرفتها ليلاً في القصر، مرهقة منهكة الجسم من المهمات الملقاة على عاتقها أثناء النهار، كانت تشعر بعقلها متعطشاً إلى مناقشات أدبية، ولكن كان من الصعب عليها أن تجد وقتاً للقراءة. كما أن الأنوار كانت تضيء كل غرف القصر ما عدا غرف النوم التي كانت تضاء بواسطة شموع وذلك اقتصاداً في النفقات، وبالنسبة إلى ثيولا والخدم فهذا كان بشكل محدود تماماً.

ولهذا كان من المتعذر عليها القراءة أثناء الليل، أما في النهار فلم يكن لديها وقت لذلك.

وهكذا اكتفت ثيولا بتلاوة الأشعار في الظلام بينها وبين نفسها، وكذلك قطع نثرية كانت تقرأها مع أبيها.

وكانت تلك القطع تُعيد إليها ذكرياتها التي كانت تبدد تعاستها وتهدهدها لتستغرق في نوم عميق.

ومع كل هذا، وبعد عام من الظلمة والتعاسة إذا بها، وبشكل لا يصدق، تصبح في كافونيا، وكان أقرباء والدة

www.lewity.com

كاترين، والذين كانوا نمساويين، هم الذين تدبروا أمر زواج كاترين من ملك كافونيا فرديناند والذي هو ابن عم ملك اليونان.

وكان شعب كافونيا قد حذا حذو اليونان ودول أوروبية أخرى فدعوا فرداً من عائلة مالكة أجنبية ليحكمهم، وهكذا جعل الكافونيون من فرديناند ملكاً لهم، وكانت ثيولا تعلم أنهم فكروا مرة في دعوة ملك ليحكمهم وذلك من اسكندينافيا.

فقد كان الملك جورج ملك اليونان والذي هو الإبن الثاني لوارث عرش الدانمارك، قد حكم البلاد عشر سنوات وطد فيها دعائم البلاد، وجلب السلام لشعبها.

ولكن لم يكن هناك أمير دانماركي أو سويدي جاهز للحكم، وهكذا اختاروا، عوضاً عن ذلك، الأمير فرديناند وهو من أقرباء الإمبراطور فرانسوا جوزيف النمساوي، فقبل هذا العرض بحماس. وكان من الصعب ان يعرف المرء في انكلترا الكثير عنه سوى أنه في الخامسة والثلاثين من العمر، وأنه كان قد سبق له الزواج، ولكن زوجته توفيت منذ سنتين دون أن تترك له وريثاً.

كانت أديليد قد قالت لابنتها: «إنني لم أر فرديناند منذ كان صبياً، ولكنه يبدو في الصورة يشبه كثيراً الإمبراطور فرانسوا جوزيف عندما كان صبياً.»

وتنهدت راضية، ثم تابعت تقول: «البروتوكول في قصور فيينا الملكية في منتهى الصرامة، وأرجو، يا كاترين، ان تتذكريها عندما تصبحين ملكة.»

فأجابت كاترين: «إنني أحب الرسميات يا أمي بكل تأكيد،

لقد كنت سمعت عن التقاليد الاجتماعية التي كانت تغيرت في عهد لويس نابوليون. ولا عجب أن حدثت عندهم ثورة.»

فقالت الأم باستياء: «من الأفضل الاقلال من ذكر الفرنسيين. إنني واثقة من انك ستجدين فرديناند ملكاً لائقاً وحازماً.»

فأجابت كاترين: «أرجو ذلك.»

ورأت ثيولا ذلك مخيفاً بعض الشيء، لقد كانت قرأت عن أسرة آل هابسبورغ ما كوّن لديها فكرة عنهم كريهة تماماً.

كانت تفكر في أنه لا بد للملوك والملكات من أن يحاولوا فهم شعوبهم. وكانت تعلم أن هذا ما كان أبوها يقره.

فكرت في أنه لا بد لكاترين من أن تتعلم لغة الشعب الذي ستحكمه ولكن عندما ذكرت لها هذا، ردت كاترين بحدة: «الملك فرديناند لا يجيد سوى الانكليزية والالمانية، فلماذا اتعلم أنا اللغة الكافونية التي لا يتكلم بها أحد خارج البلاد؟»

فقالت ثيولا: «ولكنك ستعيشين فيها؟»

أجابت كاترين: «أنا لا اتصور انه ستكون لي صلة بالشعب، والذين في القصر الملكي لا بد انهم يتكلمون الانكليزية أو الالمانية مثل ملكهم.»

وعجبت ثيولا لهذه الطريقة الغريبة التي يحكم بها ملك شعباً.

لكنها كانت أذكى من أن تصرح برأيها هذا، ولكنها صممت على تعلم اللغة الكافونية والتي كانت واثقة من انها لن تجدها صعبة حيث انها فرع من اللغة اليونانية التي تحسنها هي. وسرعان ما اكتشفت صحة هذا عندما اعتلت

متن السفينة التي كان الملك أرسلها لتنقلهم من مارسيليا.

وكانوا قد سافروا في الأرض الفرنسية بالقطار تحيط بهم رفاهية بدت لثيولا مفرطة بالنسبة لما تعودته من بخل خالها وتقتيره في النفقات.

وكان هناك مرافق رسمي لهم، إلى جانب سكرتير خالها وخادمه الخاص وخادمة لكاترين ثم هي بصفتها وصيفة.

وكان طبيب أيليد قد أعلن أن صحتها لا تتحمل مثل هذه الرحلة الطويلة.

وفكرت ثيولا في مبلغ المرارة التي ستشعر بها الأم بعدم تمكنها من حضور حفل زفاف ابنتها، إذ كانت تعاني من مشاكل في قلبها استمر سنوات، ما جعل خالها يصر على عدم المجازفة بالنسبة إلى زوجته.

وعندما حانت ساعة الوداع عند مدخل القصر، بينما العربة تنتظر لتقلهم إلى محطة القطار، خيل إلى ثيولا أنها ترى لأول مرة منذ عرفت زوجة خالها، ما يشبه الدموع في عينيها وشيء من الرقة في ملامحها القاسية.

وكانت هذه تقول لابنتها: «انتبهي إلى نفسك، يا ابنتي الحبيبة. سافكر فيك دوماً وطبعاً سأدعو لك بالسعادة.»

فقالت كاترين بصوت خالٍ من المشاعر: «الوداع يا أماه.»

ثم دخلت العربة بينما وقفت ثيولا بجانب زوجة خالها تقول بصوتها الرقيق: «الوداع يا زوجة خالي.»

نظرت زوجة خالها إليها وقد بدت في عينيها الكراهية وهي تقول بحدة: «عليك أن تكوني حسنة السلوك يا ثيولا، وتكوني ذات فائدة لكاترين.»

«بالطبع، يا زوجة خالي.»

«أرى أن خالك قد اقترف غلطة كبيرة بأخذك معه، وكل ما أرجوه ألاّ يندم على هذا.»

كان في صوت أديليد نبرة حاقدة، ولم تجد ثيولا سوى ان تصعد بسرعة إلى العربة لتجلس وظهرها إلى الجياد، مواجهة خالها وكاترين.

وعندما انطلقت العربة بهم، قال خالها لابنته: «من المحزن بالنسبة لأمك ألاّ تتمكن من السفر معنا.»

أجابت كاترين ببرود: «ان السفر سيزيد في مرضها ما سيسبب الكثير من الضيق.»

فقال خالها موافقاً: «معك حق طبعاً، ولكن ربما كان من الأفضل أن نترك ثيولا معها، فتكون، على الأقل ذات فائدة.»

وخافت ثيولا، هل من الممكن أن يعيداها إلى القصر في آخر لحظة؟

ولكن كاترين قالت: «لقد فات أوان ذلك الآن، يا أبي، هذا إلى أن ثيولا ستنفعني خصوصاً وأن إميلي ستتركنا في مارسيليا، مع المرافق.»

فقال خالها: «إن اصطحاب خادمة انكليزية إلى مكان مثل كافونيا لا فائدة فيه أبداً، وكما كنت قلت أنت، فإن ثيولا ستقوم بخدمتك إلى أن نجد خادمة كافونية تهتم بك.»

ورأت ثيولا أن خالها كان محقاً في أمر واحد، فإميلي التي شعرت بالدوار في القطار، لن تكون ذات فائدة في السفينة، بكل تأكيد، ورغم ان البحر المتوسط كان هادئاً عندما أبحروا من مارسيليا، فقد صادفتهم اكثر من عاصفة

قبل ان يصلوا إلى إيطاليا ثم إلى الأدرياتيك. أخذت كاترين تئن وتشكو بشكل متواصل، ما جعل مضيفتين تتعهدانها على الدوام، هذا بالإضافة إلى ثيولا.

ولحسن الحظ، كان هناك طبيب على متن السفينة اعتاد معالجة المصابين بدوار البحر. وهكذا وصف لها حبوباً منومة جعل كاترين تنام ساعات طويلة أصبحت ثيولا أثناءها، حرة. وكان هناك عدد من الكافونيين من ذوي المراكز العليا يمثلون الملك، وقد أعجب بهم خالها كثيراً.

بينما ثيولا، والتي شعرت بالسأم من الجلوس بمفردها في الصالون، سرعان ما وجدت رجلاً كافونياً قَبِلَ بأن يعلمها لغته.

كان في الواقع ضابطاً مساعداً للفيلد مارشال رئيس المرافقين، وهكذا أخذت ثيولا تتوسل إليه، مع الإصرار، بأن يعلمها ما تريد. فسألها: «لِمَ كل هذا الاهتمام، يا آنسة وارين؟»

فأجابت: «طالما اشتقت إلى زيارة بلادك، يا كابتن بيتلوس.»

«أرجو أن تجديها حسب توقعاتك.»

«ستعجبني اكثر لو أمكنني التحدث مع شعبك وفهم ما يقولونه لي.»

وعندما وجد الكابتن نيشياس بيتلوس بعض الكتب في المكتبة، ووضع قلماً وورقاً على المنضدة في الصالون، رأت أنه غير متفائل من انها ستكتسب شيئاً من اللغة الكافونية قبل ان تصل إلى المرفأ.

ولكنه في اليوم التالي لتركهم مارسيليا، هتف يقول:

«انك رائعة، لم أكن أعلم أن أحداً يستطيع أن يتعلم بمثل سرعتك هذه.»

فقالت ثيولا باسمة: «الفضل في أن اكثر الكلمات هي يونانية الأصل.»

فقال: «إننا بالطبع، مزيج من الشعبين اليوناني والألباني، انما الاصل اليوناني يغلب علينا.»

وأثناء اجتيازهم جزيرة صقلية، كانت ثيولا تتكلم معه بلغته بشيء من التردد ولكنها كانت تفهم كل ما يقوله لها.

وفي ذلك المساء، هتف يقول: «هذا شيء لا يصدق، وكل ما أتمناه هو...»

وسكت، فسألته بفضول: «ما الذي كنت تريد قوله؟»

«إنه شيء من الأفضل ألاّ أقوله.»

«لماذا؟»

«لأنه قد يفسر بأنه انتقاد.»

فنظرت ثيولا حولها في الصالون، ثم قالت: «كن شجاعاً وقل ما هو، فليس هناك من يسمعك سوى الكراسي الفارغة.»

ضحك الكابتن بيتلوس وقال: «كل ما في الأمر هو انني اتمنى لو كان الملك بإمكانه أن يتحدث بلغة شعبه.»

فقالت له غير مصدقة: «ألا يمكنه ذلك؟»

فهز الكابتن بيتلوس رأسه نفياً: «كلا لسوء الحظ.»

«ولكن لماذا؟ فهو ملك منذ أكثر من عشر سنوات. هل هو غير مهتم بذلك؟»

فقال الكابتن: «إنني واثق من ان لديه أسباباً كافية لكي يفضل التحدث بلغته.»

www.rewity.com

فقالت موافقة: «وأنا واثقة من ذلك، مع أن هذا يبدو غريباً. كيف يحادثه شعبه؟»

فأجاب بشبه ابتسامة: «انهم يتعلمون التكلم بالالمانية.»

فابتدأت ثيولا بالقول: «ما أسخف هذا...» وسكتت ثم عادت تقول: «آسفة... إذ أنتقده بهذا الشكل.»

فقال بجد: «هذا شيء عليك ألاّ تفعليه أثناء وجودك في القصر، وأنا اقول هذا لمصلحتك يا آنسة وارين، وإذا علم الملك بحديثنا هذا، اؤكد لك انهم سيخفضون من رتبتي بينما يرسلونك أنت إلى بلدك.»

فنظرت ثيولا إليه، ثم سألته بعد لحظة: «هل هذا صحيح؟»

أجاب: «إنني أحذرك لأن الانكليز هم عادة غير متحفظين في كلامهم، وهذا غير مقبول في فيينا، وبالطبع في كافونيا.»

فقالت: «أرى هذا غريباً جداً.»

قال: «وهذا هو السبب في أنني انصحك بأن تكوني في غاية الحذر.»

ونظر من فوق كتفه قبل ان يضيف قائلاً: «وبالمناسبة، لقد قال الفيلد مارشال إنه يعتبر كثرة جلوسنا معاً شيئاً غير عادي.»

فنظرت إليه متوجسة، وقالت: «إني آسفة إذا كنت سببت لك الإزعاج.»

فقال: «لقد كان ذلك أمراً سارّاً تماماً، وأنا اعني ذلك من كل قلبي.»

وضعت قلمها من يدها وسألته باللغة الكافونية: «حدثني عن بلادك، أرجوك.»

فسألها: «اتريدين الحقيقة أم ما هو مكتوب في كتاب المرشد السياحي؟»

«أريد الحقيقة طبعاً.»

«إن الكافونيين شعب سعيد بطبعه إذا لم يلحقه ظلم، فهم يحبون الضحك والتسلية والغناء.»

وسكت لحظة ثم قال هامساً: «ومنذ سنوات لم يعد باستطاعتهم القيام بأي من هذا.»

فسألته: «لماذا؟»

«انهم يعانون الكثير الآن من شظف العيش.»

«ولماذا؟»

بدا وكأن الكابتن بيتلوس ينتقي كلماته بعناية قبل ان يجيب قائلاً: «أولاً، فرضت عليهم ضرائب ثقيلة.»

«ولكن لِمَ هذا؟»

فهز الكابتن بيتلوس كتفيه: «بنايات البلديات، تحسينات في القصر الملكي، جيش كبير.»

«ظننتكم تعيشون بسلام مع الدول المجاورة، من المؤكد ان تركيا لا تهددكم.»

فقال كابتن بيتلوس: «ان الاتراك مشغولون بحفظ الألبانيين تحت سيطرتهم. كلما اشتبكت تركيا بحرب مع دولة اوروبية، اغتنم الألبانيون الفرصة للثورة.»

«وماذا عن اليونانيين؟ هل لديهم نوايا سيئة نحو كافونيا؟»

«كلا. أبداً، فالملك جورج يريد السلام.»

«فلماذا إذن هذا الجيش الكبير؟»

ومرة أخرى، بدا على الكابتن بيتلوس أنه ينتقي كلماته بعناية قبل أن يجيب قائلاً: «هنالك بعض التململ في البلاد.»

«بين الفلاحين؟»

«إنهم غالباً جائعون، وعندما تحدث اضطرابات يهربون إلى الجبال.»

فقالت: «ولكن، أليس الجيش مؤلفاً من كافونيين؟»

«اغلب الضباط هم نمساويون.»

وعندما رأى الدهشة على وجه ثيولا، اضاف يقول: «إنني احد الاستثناءات.»

فسألته رغم علمها أن هذا السؤال يشكل سوء أدب: «ولماذا أنت مستثنى؟»

«لقد كان أبي قد انقذ حياة الملك من اعتداء قام به أحد المتمردين، وذلك حال قدومه لاستلام الحكم، ومقابل ذلك، قدم الملك إلى أسرتي امتيازات خاصة.»

وكان قد نهض أثناء حديثه وابتدأ يغلق الكتب التي كانا يتكلمان منها، ثم جمع الأوراق، وقد بدا عليه أنه يريد أن ينهي هذا الحديث.

ولكن ثيولا عادت تسأله: «ولكن لماذا دعوتم رجلاً اجنبياً ليحكمكم؟ لا بد أنه كان في كافونيا في الأصل أسرة ملكية.»

فقال: «لقد حكمت أسرة فازيلاس البلاد عدة قرون. ولكن عندما مات آخر ملك، كانت هناك خلافات كبيرة وصراعات حزبية دون أن يكون هناك وريث بالغ سن الرشد.»

فسألته: «وهل هناك وريث الآن؟»

ودهشت إذ لم يجب الكابتن بيتلوس بشيء، وبدلاً من ذلك، حمل كتبه وهو يقول: «أرجو المعذرة، يا آنسة وارين، إذ أظن ان الفيلد مارشال سيكون بحاجة إليّ في مثل هذه الساعة. لقد كانت مساعدتي لك في دراستك هذا النهار، شرفاً لي.»

وخرج من الصالون بخطوات ثابتة، عالي الرأس في بذلته العسكرية، عند ذلك، تنهدت ثيولا ساخطة.

كان هناك الكثير تريد أن تعرفه، ولكنها رأت أنه إذا كان عليها أن تسحب كل معلومة عن كافونيا من الكابتن بيتلوس بالرغم عنه، فلن يكون لديها وقت للتعلم.

ومع ذلك، فقد ابتدأت في اليومين التاليين، تكوّن فكرة عامة عما يحدث في البلاد.

ولكنها فكرت في أنها قد تكون تتخيل اشياء لا وجود لها، ولكنها كانت متأكدة، حتى ولو لم يقل الكابتن ذلك، متأكدة من أن هناك اضطرابات اجتماعية في كافونيا، وقلقاً كامناً هو اكثر كثيراً مما استطاع سبتيموس أن يتصور.

وعندما وصلوا إلى الميناء، كانت ثيولا واثقة من أن الناس في هذا البلد قد أذلها القهر الذي يسببه لها اسيادها النمساويون.

ولكنها، في الواقع، لم تكن تجد ما يكفي من الوقت للتفكير في كافونيا أو في نفسها.

كان بحر الأدرياتيك هادئاً، ما جعل كاترين تترك قمرتها وتذهب إلى السطح.

كانت ثيولا هي الوحيدة التي بإمكانها أن تحضر لها

الثوب الذي تريد، وتسرح شعرها بالشكل الذي تهواه نفسها، وتهتم بها عندما تبدأ بالأنين والتذمر مما تشعر به من إجهاد أثناء رحلتها البحرية هذه وخوفها من كل موجة تلطم السفينة، ولكن عندما رست بهم السفينة، كانت الشمس ساطعة وقد هدأت الأمواج.

وعزفت فرقة كانت تقف على الميناء، موسيقى ترحيبية متبوعة بالسلام الوطني الانكليزي، وذلك في اللحظة التي وضعت كاترين فيها قدمها على الشاطىء، وكانت الخاتمة عزف النشيد الكافوني. لم ينتبه احد إلى ثيولا، وبينما وقف محافظ المدينة يلقي خطبة ترحيبية رسمية، انتهزت هي الفرصة لإلقاء نظرة على ما حولها.

كانت قمم الجبال البيضاء من الثلج المتراكم فوقها تبهر النظر، بينما في أسفلها انتشرت غابات الصنوبر، والعرعر وكروم الزيتون وبساتين الريحان، وكانت أشجار البرتقال والليمون تحيط بالبيوت الخشبية ذات الشرفات المتألقة بالأزهار المتعرشة. كانت ثيولا قد اطلعت في كتاب لوالدها على الحياة النباتية والحيوانية لشمال اليونان، فأدركت انها هي نفسها، تقريباً، في كافونيا.

وهكذا كانت قد اعدت نفسها لمثل هذا الجمال المذهل الذي تزخر به طبيعة هذا البلد. ولكن ما أن ابتعدت العربات بهم عن ميناء كيفيا متجهة نحو العاصمة زانتوس، حتى رأت ما لم تكن تتصوره قط من وفرة الزهور المختلفة الألوان.

كانت أقواس الزهور تمتد على طول الطريق، مزينة بالأعلام، بينما الجنود تحرس الجسر الذي مروا من تحته.

كما كان هناك جموع غفيرة من المتفرجين والفلاحات في تنانيرهن الحمراء ومآزرهن البيضاء، وهن يلوحن بأيديهن باسمات.

أما ما وجدته ثيولا بعيداً عن التصديق، فهو عدم اهتمام كاترين بكل هذا الترحيب الحار الذي يقابلها به الذي سيكون شعبها في المستقبل.

وفي الواقع، لم تولي كاترين سوى القليل من الاهتمام لتلك الهتافات المنبعثة من تلك الجموع المحتشدة في الطريق.

فقد بدت مشغولة جداً بالحديث مع رئيس الوزراء الذي كان استقبلهم في الميناء ممثلاً للملك. وقد تجاهل رئيس الوزراء هذا كلياً الكابتن بيتلوس الذي كان قريباً من ثيولا. كان رئيس الوزراء رجلاً متوسطاً في السن ذا عينين حادتين. وادهش ثيولا ان تدرك انه نمساوي.

أما خالها سبتيموس فقد تبعهم في عربة أخرى مع الفيلد مارشال وآخرين من ذوي المقام الرفيع في الدولة، وكانوا جميعاً يتألقون ببزاتهم الرسمية، أو يزينونها بسلاسل ذهبية.

كان المجموع ست عربات، بجانب عدد من الجنود الفرسان على جيادهم تحيط بها من الجانبين، وتقودهم سرية من الفرسان، بينما سرية أخرى تتبعهم من الخلف.

كان الجنود في المقدمة ينتمون إلى الحرس الملكي الخاص، كما قال الكابتن بيتلوس لثيولا.

قالت: «انهم بالغو الروعة.» فقد ذكرتها خوذاتهم اللامعة

بفرسان الحرب من قدماء الإغريق وتمنت، مرة أخرى، لو كان أبوها موجوداً ليراهم.

تمنت ثيولا لو تلقي الكثير من الأسئلة على الكابتن بيتلوس، ولكن كان من اللياقات الرسمية بالنسبة إليها ألاّ تتكلم إلا استجابة إلى كارين.

وهكذا بقيت صامتة رغم صعوبة عدم تمكنها من التلويح بيدها إلى الأولاد، أو إظهار خيبة الأمل وهي ترى ضمم الأزهار التي كانوا يرشقونهم بها فتحطئهم، واقعة بين حوافر الجياد.

وسار الموكب قرابة ساعة، أدركت ثيولا بعدها انهم كانوا يقتربون من العاصمة زانتوس بعد أن تجاوزوا عدة بيوت في الضاحية. بعد ذلك بدقائق قليلة، عبروا جسراً مخفوراً بالجند ومزيناً بالأزهار، كان يعلو نهراً واسعاً.

كانوا الآن قد اصبحوا في شوارع ضيقة تقوم على جانبيها بيوت متواضعة، دهشت ثيولا إذ رأتها غير مزينة وتبدو كأنها غير مسكونة.

كانت النوافذ مقفلة المصاريع، ولأول مرة لم تر هتافات سعيدة وجموعاً محتشدة على طول الطريق، كما لم تكن هناك ضمم أزهار تلقى على عربتهم.

بدا وكأن الجياد أسرعت قليلاً في سيرها. وتاقت نفس ثيولا إلى أن تسأل الكابتن بيتلوس عن سبب هذه الكآبة التي تحيط بهم.

وتملكها شعور كئيب لأول مرة، منذ وصولهم إلى كافونيا، واجتازا شارعاً فارغاً آخر حيث كان ثمة أفراد قلائل من الناس وبعض الأولاد الحفاة ممزقي الثياب

يلعبون إلى جانب الطريق، وانحرفت العربة فجأة. فقد تصاعدت صرخة أوقف الحوذي، على أثرها، الجياد، وسأل رئيس الوزراء بحدة: «ما الذي حدث؟» وفتح الكابتن بيتلوس الباب وقفز إلى الخارج، ثم أجاب: «يبدو أننا صدمنا طفلة.»

فهتفت ثيولا: «طفلة؟»

وخرجت، دون وعي، من الباب الذي كان الكابتن بيتلوس قد تركه مفتوحاً، نازلة إلى الطريق.

رأت فتاة صغيرة ملقاة امام عجلات العربة وقد غطى الدم ساقها، وأسرعت ثيولا تجثو بجانبها، بدا ان الطفلة قد غابت عن الوعي بعد ان اطلقت صرختها تلك، فقد كانت عيناها مغمضتين، كما انها لا تكاد تتنفس.

كان الدم يتدفق من ساقها، ما جعل ثيولا تظن بأن ثمة شرياناً مقطوعاً، وضعت رأس الطفلة في حضنها، ثم قالت للكابتن بيتلوس الذي كان واقفاً بجانبها: «اعطني منديلك، من فضلك.»

فأخذ يبحث في جيوبه ما جعلها تفكر في أنه قد لا يكون احضر معه منديلاً. وبفروغ صبر، نزعت وشاحها الحريري الذي كانت تلفه حول عنقها، واخذت تربطه حول ساق الفتاة الصغيرة فوق الركبة، ثم قالت: «يجب ان تؤخذ هذه الفتاة إلى المستشفى، فلا بد ان تحظى بعناية طبية. هل أمها هنا؟»

ورفعت نظراتها لترى، وقد تملكها الذهول، ان كل الأولاد والناس الذين كانوا في الطريق، قد اختفوا.

وجاء صوت رئيس الوزراء من العربة يسأل بحدة:

«ما الذي حدث؟ لا يمكننا أن نقف هنا، يا كابتن بيتلوس.»

«ثمة طفلة مصابة، يا سيدي الرئيس.»

«دع الأمر إذن لأبويها.»

«لا يوجد أحد هنا، يا سيدي.»

«ضعها إذن إلى جانب الطريق، يجب ان نتابع طريقنا.»

فقالت ثيولا للكابتن بيتلوس: «لا يمكننا أن نفعل ذلك، فقد ربطت الفخذ بشدة لكي أوقف النزيف، ولكن يجب ان يرفع الرباط قبل مرور عشر دقائق.»

فتردد الكابتن بيتلوس، وأدركت ثيولا أن عليه ان يطيع أوامر رئيس الوزراء.

فقالت له: «ناد والديها أو من يعرفها. لا بد من وجود أحد في هذه النواحي.»

ونظرت إلى ساق الطفلة بقلق. لقد خف النزيف الآن، ولكنها رأت أن الجرح الذي احدثته العجلات قد كشف اللحم حتى العظم تقريباً.

وقالت بجزم: «يجب ان تؤخذ الطفلة إلى المستشفى.»

فقال الكابتن بيتلوس بصوت منخفض: «لا يوجد عندنا مستشفى.»

فنظرت ثيولا إليه ذاهلة، وكأنه شعر بأن عليه أن يقوم بشيء، وضع يده بجانب فمه وصرخ منادياً: «هل يأتي احد ليأخذ هذه الطفلة حالاً؟»

ونظرت ثيولا إلى المنازل المقفلة، ولكن لم يستجب احد. ولكن رجلاً ما لبث ان خرج من احدها متجهاً نحوهم ببطء.

كان مرتدياً ثياباً قروية لا يمكن تحديدها.

فقالت ثيولا بارتياح: «لا بد أنه أبوها. هل لك أن توضح له، إذا هو لم يفهم كلامي، أن الرباط يجب ان يرفع بعد عشر دقائق، وإلا فقد تقطع ساق الطفلة. ثم إن عليه أن يحضر لها طبيباً حالاً.»

ووصل الرجل إليهم، وإذا بالذهول يتملك ثيولا وهي ترى الكابتن بيتلوس يقول له بصوت أقرب إلى الهمس: «هل أنت مجنون؟ إذا هم عرفوك فسيطلقون عليك الرصاص.»

«اعرف ذلك.» وكان الصوت عميقاً منخفضاً فتمتم الكابتن بيتلوس: «ارجوك...»

وكان في صوته نبرة خوف لم تفهم ثيولا سببها. ثم قال بصوت مرتفع: «ان ابنتك مصابة، بكل أسف. وهذه السيدة تقول ان الرباط يجب ان يرفع بعد عشر دقائق كما ان عليك ان تعرضها على طبيب حالاً.»

فلم يجب الرجل، وإنما انحنى يحمل الطفلة التي كان رأسها في حضن ثيولا، وأثناء قيامه بذلك، نظرت ثيولا إليه ولأول مرة ترى وجهه. ولم يكن ثمة شك في أنه من أصل إغريقي، لم تكن قد رأت من قبل قط رجلاً يماثل الصور التي كان أبوها قد أراها إياها. لقد بدت ملامحه مألوفة لديها حتى انها ظنت بأنها تعرفه، ولكن، ما أن تلاقت نظراتهما حتى رأت في عينيه معنى شعرت معه وكأنه صفعها. لم تكن تتصور قط أن هناك انساناً قد ينظر إليها بكل هذا الاحتقار.

سأل رئيس الوزراء بحدة: «من هو هذا الرجل؟»

فعاد الكابتن بيتلوس إلى جانب العربة وقال: «اظنه والد الطفلة، يا سيدي.»

وقال الرجل الذي كان يمسك بالطفلة، لثيولا بهدوء: «اشكرك لمعاونتك، ولكن هل لي أن اسألك معروفاً؟»

فسألته: «وما هو؟»

«هل لك أن تساعديني على حمل الطفلة بعناية إلى البيت؟ إذا انت امسكت بها بجانب منها، فسأمسك انا بالجانب الآخر. إن هذا سيكون اكثر راحة لها.»

فقالت موافقة: «طبعاً.» ولكنها لم تستطع أن تتجنب التفكير في أن بإمكان مثل هذا الرجل أن يحمل وحده طفلة صغيرة وذلك بكل سهولة.

ولكن حيث انها كانت تدرك مبلغ سوء حالة ساق الطفلة، فقد كانت على استعداد للموافقة على كل ما قد يخفف من آلامها، وسارا الواحد بجانب الآخر صاعدين في طريق قصيرة ترتفع نحو البيوت وهما يحملان الطفلة الفاقدة الوعي بينهما، وما أن وصلا إلى البيت حتى امتدت يد وفتحت لهما الباب من الداخل، وفجأة أدركت ثيولا ان الطريقة التي سارا بها قد أوجدت ستاراً بين رئيس الوزراء والرجل الذي كان يحمل معها الطفلة، ودخلا إلى المنزل.

ألقت ثيولا نظرة سريعة على الغرفة التي تنطق بالفقر لخلوها تقريباً من أي أثاث، وكان فيها شخصان، رجل مسن جالس على كرسي، وامرأة تسيل الدموع على وجنتيها والتي كان يبدو واضحاً عليها أنها والدة الطفلة.

اقتربت منهما مادة ذراعيها، بينما كانت ثيولا تسمع من خلفها صوت رئيس الوزراء وهو يصرخ: «إنه اليكسيوس

فازيلاس، اطلقوا النار عليه... اطلقوا النار عليه أيها الحمقى.»

وبدون تسرع، تقريباً، وضع الرجل الطفلة بين ذراعي أمها ثم، ودون ان ينطق بكلمة، اجتاز الغرفة ليخرج منها من باب صغير انغلق خلفه في نفس الوقت الذي جاء فيه الكابتن شاهراً مسدسه وخلفه أربعة جنود قادمين من العربة بسرعة نحو الباب الأمامي.

ولم تعرف ثيولا ما الذي جعلها تتعمد الوقوف على عتبة الباب الضيق، فتحجبه كلياً.

وسألت: «ما الأمر؟ ماذا يحدث؟»

فأجاب الكابتن بيتلوس: «دعيني أمر، يا آنسة وارين. إن لدي أوامر.»

فسألته: «ما هي تلك الأوامر؟»

«يجب علينا أن نعتقل الرجل الذي كان يساعدك في حمل الطفلة.»

ولم تتحرك ثيولا وهي تجيبه قائلة: «اظن ان تلك الأوامر هي ان تطلقوا النار عليه، يا كابتن.»

«علي أن اعثر عليه، يا آنسة وارين.»

فأجابت ثيولا: «اظنه ذهب لاحضار الطبيب. ومن الخطأ الكبير أن تعيقاه عن ذلك. فساق الطفلة، كما تعلم، مصابة إلى حد سيء.»

فقال الكابتن: «يجب علي ان اقوم بواجبي.» وعلى كل حال، فقد كان من غير الممكن له دخول المنزل دون أن يدفع ثيولا من طريقه. وتحول جنديان معه إلى المنزل المجاور له، فحاولا فتح الباب الذي كان مقفلاً تماماً، ثم اخذا يقرعانه دون جواب.

ولم تحاول ثيولا الابتعاد عن الباب، وسمعت رئيس الوزراء يصيح بهم: «عودوا، عودوا.»

بينما قال ضابط كبير من إحدى العربات الأخرى: «يجب ان نتابع رحلتنا، يا سيدي، فإن بقاءنا هنا غير آمن.»

فقال رئيس الوزراء: «هيا إذن، تابعوا المسير حالاً. لقد هرب منا فازيلاس كالعادة. لماذا لم يخبرني احد بأنه في المدينة؟»

ولم يتلق جواباً لسؤاله هذا، ولكن ثيولا أدركت ان الخطر قد تلاشى.

واستدارت لتقول للمرأة التي كانت بجانب الطفلة: «ارجوك ان تعرضي ساق طفلتك على طبيب حالاً، وكذلك ارفعي الرباط عن ساقها بعد ست أو سبع دقائق.»

كانت تتكلم بلغتها الكافونية المهشمة، ولكن يبدو أن المرأة قد فهمت قولها، فأومأت برأسها.

وكان يتدلى من معصم ثيولا حقيبة يد، ففتحها واخرجت منها جنيهاً ذهبياً وضعته على كرسي كان بجانب الباب وهي تقول: «انها لأجل الفتاة الصغيرة.»

ثم لحقت بالكابتن وهو يعود إلى العربة، وعندما دخلتها، هتفت بها كاترين قائلة: «ما هذا، يا ثيولا؟ كيف تتصرفين بهذا السلوك الخالي تماماً من أية مسؤولية، والبالغ السخافة كأن تهتمي بطفلة؟ ان هذا قسم خطر من المدينة وما كان علينا أن نتوقف هنا.»

كان لدى ثيولا العديد من الأجوبة، ولكنها شعرت بأن ذلك مضيعة للوقت، فقالت: «آسفة، يا كاترين.»

فأجابت كاترين: «وهكذا يجب أن تكوني، وأنا واثقة من

ان أبي سيكون منزعجاً إلى اقصى حد عندما يعلم بسلوكك هذا.»

وسكتت برهة، ثم اضافت قائلة بحقد: «ثمة دماء على ثوبك كما انك تبدين مشوشة الهندام تماماً.»

فنظرت ثيولا إلى ثوبها لتجد أن الحق مع كاترين، فقد كان على أسفل تنورتها بقعة كبيرة من الدماء، واخذت تفكر وقد تملكتها التعاسة بأن هذه أول دماء تراها تسفك في كافونيا.

www.rewity.com

الفصل الثاني

تحركت العربة، فاستدارت كاترين نحو رئيس الوزراء تسأله بفضول: «من هو هذا الرجل فازيلاس؟»

فأجاب هذا: «إنه ثائر متمرد. الرجل الذي يثير المتاعب أينما حلّ. إن لدى الجنود أوامر مني بأن يطلقوا النار عليه حالما يرونه. ولكن البعض من الحماقة بحيث يبدو أنهم لم يعرفوه.»

وحملق، أثناء قوله هذا، في الكابتن بيتلوس. ولكن يبدو أنه شعر بأن من غير اللائق أن يعنفه أمام الغرباء، فقال: «ولكن لا حاجة بك للخوف، يا لايدي كاترين. إنني أؤكد لك بأنه حالما نصل إلى القصر، سيأمر الفيلد مارشال بالتفتيش عن ذلك الرجل والعثور عليه في أي مكان يختبىء فيه، وبعد ذلك سيختفي ذكره.»

واختلست ثيولا نظرة من زاوية عينها إلى الكابتن بيتلوس، فرأته بالغ الشحوب، ما جعلها تشعر بأنه خائف.

لم تستطع أن تفهم بالضبط ما الذي يجري ولكنها شعرت بأنه ذو دلالة خاصة.

إذا كان اليكسيوس فازيلاس هو في الواقع من سلالة الأسرة التي سبق وحكمت كافونيا، فلماذا يرتدي ثياب الفلاحين؟ ولماذا يبدو أنه يسكن في حي الفقراء الذي مروا به لتوهم؟

كان واضحاً مما قاله رئيس الوزراء بأنهم كانوا

يحاولون قتله أو القبض عليه منذ زمن. وفي هذه الظروف، كانت شجاعته في التقدم لمساعدة الفتاة الصغيرة المصابة هي شيء غير عادي.

وحيّرها كل هذا، وأثار فضولها في نفس الوقت! ثم هناك شيء آخر يستوجب التفسير.

لماذا كانت الأحياء الفقيرة من المدينة هادئة والشوارع مقفرة؟

وعندما اجتاز الموكب تلك الأحياء، عادت أقواس النصر المكونة من الأزهار والأعلام، وكذلك هتافات الابتهاج والفرح.

لقد ظهرت الآن صورة كاترين في كل مكان على السطوح، أمام المنازل، معلقة على أعمدة مصابيح الشوارع، كما كان الناس يرفعون نسخاً منها مطبوعة بشكل رديء.

ونظرت كاترين الى الجموع الهاتفة المحيية، وبدا الرضا عليها الآن، وهي تهتف قائلة لرئيس الوزراء: «إنهم جميعاً يحملون صورتي.»

فأجاب: «إنهم يعتزون بها، يا لايدي كاترين وهم يرحبون بك ملكة للمستقبل، ليس فقط لأنك انكليزية بل أيضاً لأنك أميرة.»

فقالت على الرغم منها: «ولكنني لست أميرة.»

فقال: «إن هذه الكلمة تعني ما يعبر عنه أهل البلاد بلغتهم (السيدة الجميلة البالغة الأهمية).»

فابتسمت كاترين مسرورة، ولكن ثيولا، وهي تسمع هذا الحوار، كانت واثقة من أن رئيس الوزراء هو الذي شجع حماس الجماهير بإعلانه عن توقيت وصولها.

www.rewity.com

وفكرت بأنه كان من الممكن، لولا هذا الاعلان، أن تصل كاترين فتجد الشوارع مقفرة والأبواب مقفلة.

ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأنها كثيرة التخيلات.

ذلك أنه من الطبيعي أن يرغب شعب كافونيا في أن يتزوج ملكهم فيستعدون للاحتفال بهذه المناسبة.

وكانت كاترين تبتسم وتلوح بيدها.

مروا خلال ساحة واسعة وعدة شوارع عريضة تقوم على جانبيها منازل فاخرة تحيط بها الحدائق. عند ذلك، بدا القصر أمامهم.

كان رائعاً للغاية، وعندما اقتربوا منه، أدركت ثيولا أنه كان في الواقع نسخة عن قصر شونبرين الملكي في فيينا.

كانت النوافير تنتشر في الساحة التي أمامه. والحرس من الجنود كانوا يماثلون في الحيوية والحماس مجموعات الضيوف ذوي المراكز الهامة الذين كانوا في انتظارهم على درجات القصر نفسه.

كما كانت حلي النساء، وأوسمة الرجال تتألق في أشعة الشمس التي كانت تلف كل شيء.

وعندما وقفت بهم العربة، رأت ثيولا شخصاً في بزة بيضاء يسير على سجادة حمراء متجهاً نحوهم فأدركت أنه لا بد أن يكون الملك.

كان كل شيء أشبه بالمسرحية، وتساءلت عما إذا كان قلب كاترين يخفق بقوة وهي تفكر في لقائها بزوج المستقبل.

وعندما اقترب الملك، شعرت ثيولا بخيبة الأمل.

حتى هذه اللحظة، كان كل شيء يبدو وكأنه جزء من حكاية بحيث توقعت أن يكون الملك ذا ملامح اغريقية مثل اليكسيوس فازيلاس.

ولكنها ما لبثت أن تذكرت أن الملك هو من أسرة هابسبورغ النمساوية، فهو لهذا ليس بالأمير الذي توقعت أن ترى، ولكنه رجل عادي الشكل، ويشبه كاترين في مظهره البارد المتكبر الانعزالي.

وفكرت ثيولا بأنهما قد يكونان متلائمين. وتبعت كاترين خارجة من العربة، ثم ألقت بالتحية.

كان هناك الكثير مما يستحق الرؤية والاهتمام منها، ما جعلها لا تنتبه إلى نفسها إلا بعد ساعتين لتتذكر أن ثوبها ملطخ بالدم.

لقد قدموها إلى العديد من الناس وكلهم كانوا يتكلمون الألمانية حيث كانوا نمساويي الأصل.

وإذ أخذت الآن تفكر في كل ذلك، لم تستطع أن تتذكر أنها قابلت بينهم شخصاً واحداً كافونياً.

ولم تستطع إلا أن تفكر في أنها، وكاترين، كانتا أشبه بفتاتين مميزتين، حيث أن أية ملاحظة منهما، مهما كانت تافهة كانوا يتلقونها باهتمام وسرور بالغين.

وفكرت في مبلغ سرور كاترين لرؤية نفسها بهذه الأهمية.

ولم يكن ثمة شك في أن ابنة خالها يشملها الابتهاج لأول مرة منذ مغادرتهم انكلترا.

حتى خالها نفسه بدا عليه الزهو والسرور لكل هذا التملق والإطراء له والذي لم يتعوده.

وفكرت بأنه كان من الممكن، لولا هذا الاعلان، أن تصل كاترين فتجد الشوارع مقفرة والأبواب مقفلة.

ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأنها كثيرة التخيلات.

ذلك أنه من الطبيعي أن يرغب شعب كافونيا في أن يتزوج ملكهم فيستعدون للاحتفال بهذه المناسبة.

وكانت كاترين تبتسم وتلوح بيدها.

مروا خلال ساحة واسعة وعدة شوارع عريضة تقوم على جانبيها منازل فاخرة تحيط بها الحدائق. عند ذلك، بدا القصر أمامهم.

كان رائعاً للغاية، وعندما اقتربوا منه، أدركت ثيولا أنه كان في الواقع نسخة عن قصر شونبرين الملكي في فيينا.

كانت النوافير تنتشر في الساحة التي أمامه. والحرس من الجنود كانوا يماثلون في الحيوية والحماس مجموعات الضيوف ذوي المراكز الهامة الذين كانوا في انتظارهم على درجات القصر نفسه.

كما كانت حلى النساء، وأوسمة الرجال تتالق في أشعة الشمس التي كانت تلف كل شيء.

وعندما وقفت بهم العربة، رأت ثيولا شخصاً في بزة بيضاء يسير على سجادة حمراء متجهاً نحوهم فادركت أنه لا بد أن يكون الملك.

كان كل شيء أشبه بالمسرحية، وتساءلت عما إذا كان قلب كاترين يخفق بقوة وهي تفكر في لقائها بزوج المستقبل.

وعندما اقترب الملك، شعرت ثيولا بخيبة الأمل.

حتى هذه اللحظة، كان كل شيء يبدو وكأنه جزء من حكاية بحيث توقعت أن يكون الملك ذا ملامح اغريقية مثل اليكسيوس فازيلاس.

ولكنها ما لبثت أن تذكرت أن الملك هو من أسرة هابسبورغ النمساوية، فهو لهذا ليس بالأمير الذي توقعت أن ترى، ولكنه رجل عادي الشكل، ويشبه كاترين في مظهره البارد المتكبر الانعزالي.

وفكرت ثيولا بأنهما قد يكونان متلائمين. وتبعت كاترين خارجة من العربة، ثم ألقت بالتحية.

كان هناك الكثير مما يستحق الرؤية والاهتمام منها، ما جعلها لا تنتبه إلى نفسها إلا بعد ساعتين لتتذكر أن ثوبها ملطخ بالدم.

لقد قدموها إلى العديد من الناس وكلهم كانوا يتكلمون الألمانية حيث كانوا نمساويي الأصل.

وإذ أخذت الآن تفكر في كل ذلك، لم تستطع أن تتذكر أنها قابلت بينهم شخصاً واحداً كافونياً.

ولم تستطع إلا أن تفكر في أنها، وكاترين، كانتا أشبه بفتاتين مميزتين، حيث أن أية ملاحظة منهما، مهما كانت تافهة كانوا يتلقونها باهتمام وسرور بالغين.

وفكرت في مبلغ سرور كاترين لرؤية نفسها بهذه الأهمية.

ولم يكن ثمة شك في أن ابنة خالها يشملها الابتهاج لأول مرة منذ مغادرتهم انكلترا.

حتى خالها نفسه بدا عليه الزهو والسرور لكل هذا التملق والإطراء له والذي لم يتعوده.

وأخيراً، عندما أصبحت كاترين بمفردها مع ثيولا في غرفة الجلوس الرائعة بلونيها الأبيض والذهبي والتي هي جزء من جناح الملكة، هتفت مبتهجة: «الحق مع أمي. ساستمتع بكوني ملكة.»

قالت ثيولا: «كنت أعلم هذا. وقد كان الناس سعداء حقاً برؤيتك.»

فقالت كاترين: «طبعاً كانوا كذلك. لقد أخبرني رئيس الوزراء مرة بعد مرة بمبلغ سروره هو وزملائه لوصول إمرأة انكليزية على الحكم.»

فقالت ثيولا: «كنت أفكر في شعب كافونيا.»

فقالت كاترين: «آه... أولئك. لا شك أنهم سيبتهجون باحتفالات الزفاف التي اكد لي الملك بأنها ستستمر أياماً.»

فسألتها ثيولا: «أتعلمين أنه لا يوجد مستشفى في زانتوس؟»

فردت عليها بحدة: «هذا الأمر لا يعنيني، وإذا كنت ما زلت تفكرين في تلك الطفلة المصابة التي جعلتك تتصرفين بذلك الشكل المعيب، يا ثيولا، فعليك ان تنسيها.»

لم تجب ثيولا. وبعد لحظة، تابعت كاترين تقول: «إذا كان ذلك نموذجاً لتصرفاتك في هذه البلاد الأجنبية، فسأطلب من أبي أن يعيدك معه الى انكلترا. وقد أفعل هذا على أي حال. إنني واثقة من أن هناك سيدات نمساويات في منتهى اللطف ويسرهن جداً أن يعملن في وظيفة وصيفات الملكة.»

كانت ثيولا تعرف جيداً نوع الحياة التي تنتظرها في

انكلترا. ولم يكن ليخطر على بالها قط أنه، بعد وصولها إلى كافونيا، قد تستغني كاترين عن خدماتها بهذه السرعة.

فقالت بخضوع: «إنني... آسفة.»

فقالت كاترين: «هذا ما عليك ان تشعري به ولكن حافظي على سلوك طيب في المستقبل، يا ثيولا. فقد رأيت أن رئيس الوزراء قد استاء جداً من تصرفاتك التي منعتهم من اطلاق الرصاص على ذلك المتمرد.»

فجاهدت ثيولا لكي لا تنطق بالكلمات التي حارت على شفتيها، وبدلاً من ذلك قالت: «أيمكنني الذهاب إلى غرفتي يا كاترين لكي أغير ثوبي؟ انك ستكونين بحاجة إليّ لخدمتك بعد ساعة كما أظن، عندما يكون علينا أن نقابل الملك في حفلة الاستقبال.»

فأجابت كاترين: «نعم، وأسرعي. سأكون بحاجة إليك لكي تشرحي للخادمات الجديدات كيف يختارون لي ثيابي، كما أن عليك أن تصففي شعري.»

فأجابت ثيولا: «نعم، بالطبع.»

وأرشدتها خادمة إلى غرفتها والتي كانت بجانب غرفة نوم كاترين الفسيحة.

كانت غرفة الملكة رائعة الجمال كما كان من الواضح أن الأثاث قد أحضر من فيينا، وذلك من طرازها المزخرف والمرايا ذات الأطر الفضية، والخزائن المطعمة بالذهب.

وبدلاً من المدفأة العادية، كانت المدافىء مصنوعة من القرميد المزخرف، منسوخةً من القصر في فيينا.

وفي غرفة الجلوس والممرات كانت اللوحات التي تزين الجدران كلها تمثل أجداد الملك النمساوي من آل هابسبورغ، أو مناظر من النمسا.

كانت ثيولا واثقة من أنه إذا كان لكافونيا أية حضارة خاصة بها، فهي غير ممثلة قطعاً في القصر.

كانت غرفتها هي، طبعاً، أصغر كثيراً من غرفة كاترين، ولكنها كانت مريحة، وأيضاً، نمساوية الطراز.

كان هناك خادمتان مشغولتان بتفريغ حقائب ثيولا، وعندما شكرتهما باللغة الكافونية بدا عليهما السرور البالغ ونظرتا إليها باسمتين.

كانت إحداهما شابة صغيرة بينما كانت الأخرى، والتي كانت كما يبدو تدربها، كانت امرأة أكبر سناً.

هتفت مسرورة: «هل تتكلمين لغتنا، يا آنسة؟»

فأجابت ثيولا: «إني أحاول ذلك. وأريد منكما أن تساعداني لأنني لم أبدأ بتعلمها منذ مدة طويلة.»

فقالت: «إننا ممنوعون في القصر من التكلم بغير اللغة الالمانية.»

فقالت ثيولا: «ليس عندما تكونان معي. ان حديثكما إلي باللغة الكافوينة سيساعدني، إذ أن هذا سيكون أسهل طريقة لتعليمي لغتكم.»

فسرت الخادمتان لهذا الاقتراح. وفي نفس الوقت، كانت ثيولا تعلم مبلغ ما ستكون عليه كاترين من غضب إذا هي تأخرت في ارتداء ملابسها، وبالتالي الذهاب إليها، وبالنسبة إليها، لم يكن من الصعب عليهما اختيار ما سترتديه.

فقد كانت أديليد كالعادة شحيحة جداً إذا كان الأمر يتعلق بانفاق نقود على شراء ملابس لابنة أخت زوجها.

كانت قد قالت لها: «لن ينظر إليك أحد يا ثيولا، وكلما كنت أقل لفتاً للنظر، كان ذلك أفضل.»

ولهذا اختارت لها أرخص أنواع الأقمشة الباهتة الألوان ما جعل ثيولا تحزن كلما نظرت إليها.

ومع أنها، وأمها لم يكن لديهما ما ينفقانه سوى القليل، فقد كانتا تختاران لثيابهما الألوان الفاتحة التي كانت تعجب أباها دوماً والتي كانت ثيولا تعلم أنها تلائم طبيعتها.

كانت ثيولا، أحياناً تتساءل عما إذا كانت زوجة خالها تحاول متعمدة أن تخمد فيها ذلك الضوء الذي كان أبوها قد تحدث عنه والذي كانت هي تعلم أنه يكمن في أعماقها.

لقد جعلتها حياتها في قصر خالها، والمعاملة الفظة التي كانت تلقاها، والإهانات المستمرة والضرب المفاجيء، كل ذلك جعل من الصعب عليها أن تتذكر تلك الأيام السعيدة الغابرة.

كان من الصعب عليها أن تتذكر كل ما كان قد علمها اياه، بينما هي تسرع من مكان لآخر، وتطيع أمراً بعد أمر.

وسألتها أكبر الخادمتين سناً، معترضة بذلك افكارها: «أي ثوب سترتدين، يا آنسة؟»

فقاومت رغبة تدفعها إلى أن ترد بحدة بأن ذلك لا يهم، وأن ملابسها جميعها قبيحة.

www.rewity.com

كانت تراها معلقة في الخزانة بألوانها المتنافرة والمتناقضة مع نور الشمس في الخارج، وبياض الثلوج الباهر الذي يكلل قمم الجبال والزهور التي كانت تجعل من كافونيا حلماً رائعاً.

كانت كاترين سترتدي لحفلة الاستقبال ثوباً أبيض مزيناً بورود صغيرة وردية اللون وشرائط زرقاء.

أما بالنسبة إلى ثيولا، فكان عليها ان تختار بين أثواب من أرخص أنواع الأقمشة وتتراوح الوانها بين الرمادي والبني القاتم والأزرق الكالح القبيح.

وقالت بلهجة آلية: «سأرتدي الرمادي.»

ورغم اسراعها في العودة الى غرفة كاترين، إلا أنها لم تكن مسرعة بما فيه الكفاية، فقد وجدت ابنة خالها في غاية من الغضب وهي تبادرها قائلة حال دخولها: «أخبري هاته المعتوهات بأنني أريد أفضل جواربي الحريرية.»

كانت تتحدث بالانكليزية، ومع أن الخادمات لم يفهمن ما كانت تقوله، إلا أنهن كن يميزن السخط في لهجتها. ورأتهن ثيولا قلقات خائفات.

كانت واثقة من أنهن كن يبذلن غاية وسعهن في سبيل ارضائها، ولكن كاترين كانت ضيقة الصدر كالعادة وكانت تتوقع ان تعلم الخادمات ما تريده بشكل سريع دون أن تكلف نفسها عناء الافصاح بوضوح عما تريده.

وعثرت ثيولا على الجوربين بسرعة، وأخبرت الخادمات بلغتهن كيف تريدهن سيدتهن الجديدة أن يخدمنها.

وسرعان ما كن يبتسمن ويسرعن بالامتثال لارشاداتها

بينما تحسن مزاج كاترين وهي تنظر الى صورتها في المرآة.

قالت: «هذا الثوب يلائمني تماماً، ولا أظن أنه سيمائله ثوب أية إمرأة أخرى في القصر.»

فقالت ثيولا وهي تعني ما تقوله: «إنك ستكسفينهن جميعاً.»

فقالت كاترين: «وهذا ما أبغيه. وأنا أنوي أن أحضر كل أثوابي في المستقبل من باريس.»

فقالت ثيولا: «إنها باهظة الثمن.»

فهزت كاترين كتفيها دون اكتراث، وقالت: «المال يمكن إيجاده. كوني واثقة من ذلك رغم أن رئيس الوزراء كان يخبرني بأن على الدولة ديوناً باهظة...»

فقالت ثيولا بسرعة: «أرجو ألاّ يكون هذا صحيحاً.»

فنظرت كاترين إليها بدهشة وسألتها: «ولماذا يزعجك ذلك؟ إن هذا الأمر لا يؤثر علي قطعاً.»

فأجابت ثيولا: «إن هذا يعني زيادة الضرائب على الشعب، ويمكنك أن تتصوري كم كان عليهم أن يدفعوا في السابق لبناء مثل هذا القصر الكبير.»

فأجابت كاترين: «ولماذا لا يدفعون؟ لا أظنهم يتوقعون من ملكهم أن يعيش في كوخ.»

وكان في صوتها نبرة عدوانية.

وتمكنت ثيولا بجهد من أن تمتنع عن القول إن مثل هذا الإسراف البالغ هو شيء غريب جداً بالنسبة لكونهم لا يستطيعون بناء مستشفى.

ولكنها كانت تعلم أن ليس ثمة فائدة من قول مثل هذه الأشياء لكاترين التي كان كل اهتمامها موجهاً إلى نفسها ومظهرها الخاص.

وتذكرت ثيولا مظاهر الفقر المتجلية في غرفة ذلك المنزل الذي نقلت إليه الطفلة المصابة.

لم يكن ثمة من الأثاث سوى كرسيين خشبيين ومنضدة وسرير في احدى الزوايا، كما بدا لها من مظهر الأم والطفلة معاً انهما تعانيان من سوء التغذية.

لقد أدركت جيداً ما الذي كان يعنيه الكابتن بيتلوس بقوله ذاك بأن الشعب هنا تسري بينه حالة من التململ وعدم الارتياح.

هل من المستغرب أن يحدث هذا عندما ينفق الملك المبالغ الباهظة على قصره، دون أن يقوم بشيء، كما يبدو للفقراء من شعبه؟

ووجدت نفسها تتمنى ألاّ يعثر الجنود الذين أرسلوا للبحث عن اليكسيوس فازيلاس، عليه.

لقد نظر إليها حينذاك باحتقار لأنه كما كانت تعلم جيداً، قد اعتبرها جزءاً من النظام الذي تمرد هو عليه.

ووجدت نفسها تتساءل عما إذا كانت ستراه مرة أخرى.

كان هذا يبدو بعيد الاحتمال، لأنها عندما تعرفت بعد ذلك إلى جميع ذوي المراكز الرفيعة، وجدتهم جميعاً من النمساويين.

لقد كانت سألت احدى السيدات: «هل أنت تعيشين هنا منذ زمن طويل؟»

فاجابت السيدة: «لقد جئت إلى كافونيا منذ عشر سنوات. إن الملك يريد أن يحيط به أهل بلده.»

فسألتها ثيولا: «ألم يهمك الابتعاد عن وطنك؟»

فاجابت السيدة: «كنت أشعر أحياناً بالشوق إلى الوطن. ولكننا أصبحنا الآن مجموعة كبيرة هنا، وعدد كبير منا جمعت بينهم أواصر القرابة والنسب المختلفة. ذلك ان الجو في كافونيا رائع الجمال، وأنا دوماً أقول لزوجي بأن ذلك يشكل ميزة عظيمة هنا.»

وعلمت ثيولا بأن ثمة حفلة عشاء تقام مرة أو مرتين أسبوعياً في القصر يقيمها إما الملك وإما أحد أفراد الحاشية.

وكان هناك مسرح يقوم بالتمثيل فيه أولئك المستوطنون وأحياناً يزور زانتوس العاصمة ممثلون أجانب من اليونان أو ايطاليا.

وفي ذلك المساء قال لها احد وصفاء الملك: «إننا جالية صغيرة مولعة بالمرح وأنا واثق يا آنسة وارين من أنك ستجدين الكثير من وسائل التسلية هنا.»

فاجابت ثيولا: «أرجو أن تسنح لي الفرصة للتفرج على جميع أنحاء البلاد.»

فنظر إليها الوصيف بدهشة: «إن كل شيء هام هو موجود في العاصمة. طبعاً هناك أماكن واسعة للصيد، رغم أنني أشك في انك ستستمتعين بذلك. ونحن نصطاد الأيائل الصغيرة وغزال الشاموا في الأوقات المناسبة من السنة. ولكن بالنسبة للسيدات هناك الكثير مما يمكنهن القيام به في القصر. وأنا اطمئنك يا آنسة وارين إلى أننا

نقدر تماماً الفتيات الجديدات مثلك وملكتنا المستقبلية طبعاً.»

كان هناك عدد من الشبان النمساويين العازبين كانت ثيولا علمت أنهم ضباط في الجيش، ولكنها وجدتهم جافين ليس من السهل التحدث إليهم.

وأدركت أنهم رغم الاحترام الذي أبدوه لها لأنها ابنة أخت سبتيموس بورن وابنة عمة كاترين، فإن مظهرها لم يعجبهم وكذلك معاملة أقاربهم لها.

وهكذا اقتنعت بأنها لن تلبث أن تفقد في نظرهم اي اعتبار لها أو أهمية.

وما لبثت توقعاتها أن تحققت. ذلك أن لوم كاترين الحاد لثيولا وتأنيب خالها لها الذي يقرب من الاهانة وذلك أمام الآخرين، سرعان ما لفت أنظار المتعجرفين وذوي التمييز بين الطبقات من النمساويين.

كان أهالي فيينا مشهورين بحبهم للرسميات والتي كانوا يبالغون فيها إلى حد لم يكونوا يرفعون كوباً إلى شفاههم دون الخوف من خرق نوع من قواعد المجاملات.

قالت كاترين لثيولا: «قيل لي ان من قواعد السلوك في فيينا، بالنسبة للسيدات، أن يتناولن الطعام مرتديات القفازات.»

فهتفت ثيولا: «يا للسخافة. لا أستطيع تصور شيء أكثر صعوبة من هذا. لا بد أن هذا العرف الاجتماعي ابتدعته ملكة ذات يدين قبيحتين.»

فقالت كاترين: «لقد أخبروني بأن الملكة اليزابيت ملكة النمسا قد أدلت بهذه الملاحظة.»

فقالت ثيولا: «حسناً، أرجو أنك لن تقترحي مثل هذا الأمر هنا. إنني واثقة من أن أحداً لن يرضى عنها في جو هذه البلاد الحار.»

فأجابت كاترين: «ربما أفكر في هذا الأمر.»

كانت كاترين، كما لاحظت ثيولا، تزداد تشبهاً بالملوك يوماً بعد يوم وأدركت أنها تتعلم ذلك من الملك.

وفي كل مرة كانت ثيولا تقابل الملك، كانت تراه عنيداً متغطرساً.

وكانت هناك لحظات كانت تلحظ فيها، بشعور لا يخلو من التسلية، كيف يجد خالها من الصعوبة احتمال ما يظهره له صهر المستقبل من تنازل، وكيف انه يهمل ملاحظاته كلياً وكأنه لا شأن له.

كان واضحاً أن الرجال في القصر كانوا جميعاً يخافون الملك فرديناند، ما جعل ثيولا تتأكد من أنه كان قاسياً متسلطاً للغاية.

ذلك انه كان من السهل أن تدرك من طريقة معاملته للخدم وصغار الموظفين انه كان مستبداً وكان ليس لأحد شعور ما عداه.

عندما دخلت ثيولا إلى غرفتها، وجدت الخادمات يبكين، ففكرت في ان كاترين لا بد ضربتهن بفرشاة الشعر أو أي شيء وجدته في يدها. تماماً كما كانت أمها تضرب ثيولا عندما كانت في القصر.

وحيث أن كاترين كانت قليلة الصبر في تعليم خادماتها أي شيء، فقد توقعت من ثيولا ان تكون في خدمتها في كل لحظة ممكنة.

واذا كانت ثيولا في قصر خالها، قد استطاعت أن تجد شيئاً من الفراغ، فانها في قصر الملك أصبحت لا تكاد تجد لحظة منه.

ولهذا كانت واثقة أنه من غير المحتمل أن تعيدها كاترين بعد الزفاف الى انكلترا مع والدها، إذ لم تكن تتصور أن باستطاعة كاترين الاستغناء عنها، وكان في هذا راحة لها.

ولكن ثيولا ابتدأت تشعر بالخوف من أن لا تسنح لها الفرصة لرؤية أي شيء عدا غرف القصر الملكي الرخامية الفائقة الاتقان والحدائق الرسمية المنسقة التي تحيط به.

سألت الكابتن بيتلوس مرة: «ألا نذهب أبداً للتفرج في أنحاء مدينة زانتوس أو خارجها؟»

فأجاب: «نادراً جداً، وليس في مثل هذا الوقت من السنة. فالسيدات يعتبرن الجو فيه شديد الحرارة.»

فقالت: «كم أحب التنزه في النواحي الريفية.»

أجاب الكابتن: «قد تحصل لك فرصة لذلك بعد حفلة العرس، ولكنك إذا اقترحت ذلك الآن، فستلقين كثيراً من المعارضين لأنه ليس هناك من يذهب للنزهة.»

فتنهدت ثيولا، ثم قالت: «قد أبدو مدللة إذ أقول إني أجد نفسي كالمسجونة في هذا القصر.»

فأجاب الكابتن بيتلوس: «غالباً ما ينتابني أنا نفسي مثل هذا الشعور. ولكن بإمكاني الذهاب عندما يشرع الفيلد مارشال في تفقد الجند في النواحي الأخرى من البلاد.»

فقالت باكتئاب: «ما أكثر الأشياء التي أتوق لرؤيتها.»

كانت تفكر في الجبال والأزهار والوديان والغابات الكثيفة التي علمت أنه يعيش فيها أنواع الحيوانات المختلفة من الدب الاسمر إلى الوشق (وهو نوع من أنواع السباع) أو الهر الوحشي.»

وقال الكابتن يقترح عليها: «عليك أن تقنعي ابنة خالك، عندما تصبح ملكة، بالقيام بالنزهات وحتى رحلات الصيد.»

ولكن ثيولا كانت واثقة من أنه كان يعلم أن كاترين لا تحب القيام بأي عمل من هذا النوع.

انها ستكون راضية تماماً بحكم هذا البلد الصغير، والتلهي بأخبار المغامرات، والشائعات والتسليات المضحكة التي تقام في القصر يوماً بعد يوم.

وحدثت ثيولا نفسها بأن من الخطأ بالنسبة إليها، أن تتذمر أمام حسن حظها الذي جعلها تبتعد عن قصر خالها وتأتي إلى هنا.

ولم تكن قد رأت خالها إلا قليلاً، بسبب كثرة الأشخاص الذين كانوا يحتفون به، ولكنه أرسل يطلبها وذلك قبل يومين من الزفاف.

دخلت إلى غرفة جلوس الملكة حيث كان بانتظارها، وقد داخلها شعور مفاجيء بالتوجس خوفاً من أن يكون قد قرر أخذها معه إلى انكلترا.

قال حال دخولها الغرفة: «أريد أن اتحدث إليك، يا ثيولا.»

فقالت وقد تملكها الخوف: «نعم، يا خالي.»

فقال: «سأغادر هذا البلد في اليوم التالي للزفاف. وحيث

أن كاترين تشغلك بشؤونها على الدوام، فقد لا تحصل لي فرصة أخرى للتحدث إليك.»

«هذا صحيح، يا خالي.»

لم يكن يبدو عليه وكأنه ينوي أخذها معه، فانتظرت وقد خف توجسها قليلاً.

فقال: «ستبقين في كافونيا إلى أن تستطيع كاترين الاستغناء عنك. ولكنني أريدك أن تفهمي جيداً ما سأقوله لك.»

«وما هو ذلك، يا خالي؟»

«عليك أن تتبعي في تصرفاتك كل آداب الحشمة والسلوك، ولا أريدك أن تهتمي بأي شخص في أي وقت كان، أو ان تسمحي له بالاهتمام بك.»

فحملقت ثيولا به، وقالت: «لا أفهم... شيئاً.»

فقال: «إذن، فدعيني أكن واضحاً معك. سواء كنت تعيشين في انكلترا أم في كافونيا، فإنك ما زلت تحت وصايتي ولهذا لا يمكنك يا ثيولا أن تتزوجي دون رضائي. وهذا ما لا أنوي منحك إياه.»

«حتى وأنا... هنا، يا خالي؟»

فأجاب: «حيثما تكونين، وكما كنت أخبرتك من قبل، فقد ألحقت أمك العار باسمنا.»

فلم تتكلم ثيولا، فأضاف يقول وقد ازداد عنفاً: «ليس في نيتي أن أحدث أي رجل قد يريدك أن تكوني زوجته، بأن أختي، أختي الوحيدة والتي يجري في عروقها الدم النبيل منذ أجيال، قد ألحقت العار بنفسها وذلك بالزواج من رجل أقل منها، الزواج من رجل يكاد لا يفرق عن خادم.»

كان الاحتقار الذي بدا في لهجة خالها أشقى على

مسامع ثيولا من كلماته. وتقبضت يداها تكبح نفسها عن ألاّ تأخذ في الدفاع عن أبيها. بينما كان خالها يتابع قائلاً: «لقد تقبلوك هنا بصفتك ابنة أختي وابنة عمة كاترين، ومن ثم لا حاجة بهم إلى أن يعلموا شيئاً عن زواج أمك المحط لقدرها ذاك.»

وسكت لحظة، ثم قال بعنف: «ولكنك تعلمين به، كما أعلمه أنا. وهذا هو السبب في أن عليك أن تبقي دون زواج، يا ثيولا، وذلك بدفع ثمن ما فعله والداك بالخدمة والإذلال إلى أن تموتي.»

فأخذت تقول: «ولكن... يا خالي...»

ولكن خالها قال مزمجراً: «إياك أن تجرؤي على الرد في وجهي، فلن أقول شيئاً آخر في هذا الشأن سوى أن أعيد عليك القول بأن تنتبهي الى سلوكك وتفعلي ما أخبرتك به. ان لدى كاترين أوامر مني بأن ترسلك إلى انكلترا على الفور لدى أقل تصرف منك غير لائق.»

وسكت برهة، ثم أضاف يقول: «وهناك سيكون عقابك بشكل يجعلك تندمين على عدم اطاعتك لي. هل تفهمين؟»

«نعم... يا خالي.»

فقال: «إذن، فهذا كل ما أردت قوله لك. إنك محظوظة جداً لأن كاترين بحاجة إلى خدمتك لها، وإلا لما كنت هنا هذه اللحظة، وما كنت لاغادر من دونك.»

وما أن قال خالها ذلك، حتى استدار وخرج من غرفة جلوس الملكة.

وإذ أغلق الباب خلفه وبقيت ثيولا بمفردها، رفعت يديها تغطي بهما وجهها.

لم تستطع أن تصدق أنه كان يقصد ما يقوله حقاً، وأن عليها ألاّ تتزوج أبداً، وأنها لن تعرف البهجة ولا السعادة التي كان يتمتع بهما والداها.

وبدا لها من غير الممكن أنه لم يكن يفهم أي رجل غير عادي ما كانه أبوها.

ذلك أن كل شخص في جامعة اكسفورد كان يتحدث عن نبوغ ريتشارد وارين. وقد كان وقع عليه الاختيار ليكون (فتى الجامعة)، إذ لم يكن هناك في جامعته من لا يكن له الاعجاب والاحترام معاً لعلمه الجم، والحب للآخرين.

وعندما توفي، تلقت ثيولا مئات من رسائل التعزية والثناء عليه وهذه لم تجرؤ قط على ان تريها لخالها إذ كانت واثقة من أنه كان سيرفض قراءتها ويحرمها، دون شك من سرور الاحتفاظ بها.

كل ما كانت تملكه في بيتها وما كانت تشعر بأنه لها، قد بيع عند موت والديها أو القي به بعيداً.

ذلك أن خالها لم يسمح لها بأن تحضر معها الى قصره أي شيء عدا ثيابها، حتى النقود التي كان قد خلفها لها والداها، على قلتها، قد صودرت منها.

وعندما كانوا يستعدون للسفر إلى كافونيا، قالت له: «هل لك أن تعطيني شيئاً من النقود، يا خالي؟ إنني بحاجة إليها لاحتياجاتي الخاصة.»

فسألها بلهجة عدائية: «وما هي احتياجاتك تلك؟»

«ربما... ربما رغبت في شراء بعض الثياب لي من وقت لآخر، أو في اعطاء إكرامية لخادم.»

فقال خالها: «حيث أنك لن تتميزي كثيراً عن الخدم، فهم

لن يتوقعوا ذلك منك. أما بالنسبة إلى الثياب فلا شك أن كاترين ستمدك بما تحتاجينه.»

فقالت: «ولكن ليس بإمكاني أن أسير وحقيبة يدي خالية.»

فأجاب بحدة: «إذن، لا تحملي حقيبة يد.»

فرأت أن خالها يعرضها لموقف بالغ الإذلال، ولكن التعزية الوحيدة التي كانت لديها هي في ثلاثة جنيهات ذهبية كانت تخبئها في علبة صغيرة.

كان والدها قد منحها إياها في أحد ذكرى مولدها لأن كل واحد منها كان يرمز إلى مناسبة هامة في حياتها.

الأول كان مؤرخاً في سنة ١٨٥٥ وهو عام مولدها. والثاني في سنة ١٨٦٨ وهو عام نيلها أول شهادة مدرسية، والثالث في العام الذي بلغت فيه الخامسة عشرة، فأعطاها الثلاثة معاً.

حينذاك، قالت لها أمها: «عندما يصبح لديك ما يكفي منها، يا حبيبتي، سنجعل منها سواراً لك.»

فأجابت ثيولا: «كم سيكون ذلك جميلاً، يا أماه.»

ولكن لم يكن هناك المزيد من الجنيهات، وأصبحت هذه الثلاثة الآن هي كل ما تملك من نقود.

وكانت قد نوت ألاّ تنفقها إلا في الأحوال الطارئة الضرورية.

وهكذا، في غمرة حزنها، لما اصاب تلك الطفلة حين دخولهم المدينة، تركت لها واحداً من تلك الجنيهات العزيزة على قلبها في ذلك المنزل الذي يطل الفقر من جوانبه.

www.rewity.com

ولم تندم على ذلك، بينما في نفس الوقت كانت تتساءل عما سيحدث لو أنها أرغمت على أن تطلب من كاترين ثوباً جديداً في الوقت الذي كانت تعلم فيه أنها لا تقل بخلاً وشحاً عن والديها.

* * *

قالت كاترين وهما تصعدان إلى الطابق العلوي، بعد مساء عرضت أثناءه مسرحية تبعتها حفلة: «لم يعد أمامنا سوى يومين فقط.»

فسألتها ثيولا: «هل أنت تنتظرين يوم عرسك بشوق؟»

فأجابت كاترين: «سأصبح ملكة.»

«وهل ستكونين سعيدة مع... الملك فرديناند؟»

ألقت ثيولا بهذا السؤال مترددة، راجية ألاّ تظن كاترين بها السفاهة.

ولكن كاترين قالت بعد لحظة: «أرى أن العيش معه سيكون ساراً.»

وسكتت لحظة وكأنها تفكر في ما قالت، ثم تابعت: «وأنا معجبة بطريقته في حكم البلاد.»

فسألتها ثيولا: «وهل تحدث إليك عن هذا؟»

فأجابت: «لقد أخبرني بأن الشعب بحاجة إلى يد حازمة وأن يبقوا تحت الانضباط. إنهم اغريقيو الأصل جزئياً وبالتالي عاطفيون سريعو التصرف.»

فقالت ثيولا منتقدة دون وعي: «ولكنها بلادهم.»

فأجابت كاترين: «بالعكس، فهي بلاد فرديناند، فقد حدثني كم جاهد في سبيل تحسين مركز كافونيا الدولي.»

فسألتها ثيولا: «بأي طريقة؟»

«أصبح الملوك الآخرين يحترمونه، وبعد فهو قد حكم مدة اثنتي عشرة سنة فانظري ماذا فعل في هذه المدة القصيرة.»

فسألتها ثيولا باحتراس: «وما الذي... فعل؟»

«ألم ترَي القصر؟ لم يكن شيئاً يذكر من قبل، وإنما بناء متهاوياً عندما وصل فرديناند، وكانت المدينة عبارة عن مجموعة من البيوت الحقيرة لا تحوي متجراً واحداً معتبراً. وكانت السيدات إذا أردن شراء شرائط لأثوابهم أو تخاريم، يرسلن بطلبها من أثينا أو نابولي.»

فلم تقل ثيولا شيئاً.

وفي الواقع لم يكن هناك ما يمكنها قوله. ذلك ان كاترين لم يكن يهمها مشاعر أو بالأحرى آلام الشعب، وبعد فهي نفسها لا تعرف الكثير عنهم.

فالغرفة التي يتجلى فيها الفقر، والتي رأتها في ضاحية العاصمة زانتوس، وما كانت سمعته من تململ الفلاحين خارج المدينة جعلها تكوّن فكرة كاملة عن الوضع.

قالت كاترين: «يجب أن أذهب إلى النوم. فأنا لا أحب أن أبدو متعبة غداً حين نستقبل العديد من الضيوف الذين سيصلون لحضور العرس في اليوم التالي.»

فسألتها ثيولا: «ألا تشعرين بالرهبة مطلقاً؟»

فأجابت كاترين: «وما الذي يجعلني أشعر بذلك؟ وبعد، كما تعرفين جيداً يا ثيولا، فأنا أصلح تماماً لأكون ملكة، كما أنني سأبدو عروساً رائعة الجمال.»

وتوجهت كاترين نحو غرفة نومها حيث كانت الخادمات بانتظارها.

قالت: «حالما أتزوج سأغير الوان الستائر في هذه الغرفة. فأنا لا أرى ان اللون الوردي يلائمني حقاً فاللون الأزرق ذو تأثير افضل كما ان الارائك غير مريحة تماماً.»

فقالت ثيولا: «ولكن تغيير أثاث الغرفة بأكمله سيكلف غالياً.»

فقالت كاترين: «وهل تهم التكاليف؟ يمكن احضار القماش من فيينا أو باريس ولدي نية بأن أحضر حاملات الشموع من زجاج فينسيا.»

وإذ وقفت تنتظر ثيولا لكي تفتح لها باب غرفتها، إذا بباب غرفة الجلوس ينفتح بعنف.

واستدارت الفتاتان لتريا سبتيموس يقف عند الباب.

كان يهتف: «أسرعي يا كاترين غيري ملابسك الى ملابس الركوب، فنحن سنرحل في الحال.»

«نرحل؟ ماذا تعني يا أبي؟»

«ليس لدينا وقت نضيعه فأنت والملك سيأخذونكما إلى مكان آمن.»

فصرخت كاترين: «ولكن لماذا؟ ولماذا نحن لسنا آمنين هنا؟»

فأجاب: «لأنه قامت ثورة، ورئيس الوزراء يقول إنها لن تهدأ في يوم أو يومين والحكومة لا تريد ان تعرض حياتك أو حياة الملك إلى الخطر.»

فصرخت كاترين وهي توشك على الانهيار وقد ظهر الرعب على وجهها: «أبي، أبي.»

فأرعد أبوها صارخاً: «إفعلي ما أقوله لك، يا كاترين،

ارتدي ملابس الركوب واستعدي للمغادرة بظرف خمس دقائق.»

فأطلقت كاترين صرخة رعب. وما أن استدار سبتيموس ليغادر الغرفة حتى سألته ثيولا: «وهل أذهب أنا مع كاترين، يا خالي؟»

فنظر إليها وقال دون اكتراث: «ليس عليك خطر بصفتك انكليزية. ابقي هنا وسأطلب من شخص ما بأن يهتم بك.»

www.rewity.com

الفصل الثالث

صرخت كاترين فارغة الصبر وهي تخلع قفازيها الطويلين وتلقي بهما إلى الأرض: «أسرعي، يا ثيولا. أسرعي أيتها الحمقاء.»

لم يكن هناك أثر للخادمات، فركضت ثيولا إلى الخزانة لتحضر لها ثوباً للركوب.

كان أول ثوب أخرجته وردي اللون، فصرخت كاترين فيها: «ليس هذا، يا غبية، يجب ألاّ يلحظني أحد. فقد يطلقون الرصاص علي. اعطني ثوباً قاتم اللون.»

فأخرجت ثيولا بسرعة ثوباً أزرق قاتم اللون وأخذت تساعد كاترين على ارتدائه، بينما كاترين تتذمر قائلة: «لماذا انت بطيئة إلى هذا الحد؟ والآن أين حذائي وقفازاي، وقبعتي؟ يجب أن آخذ معي مجوهراتي. اوه، ليس ثمة أحد بتهاونك هذا.»

واخيراً، أتمت ارتداء ثوبها بعد أن اغرقت ثيولا بالسباب، ثم استدارت نحو المرآة تعدل من وضع قبعتها العالية التي كانت محاطة بنقاب شفاف، وهي تقول: «لا أدري ما الذي يفعله الجنود إذ يسمحون بأن يخرج اولئك المتمردون عن السيطرة.»

فسألتها ثيولا: «هل كان الملك يتوقع فتنة من أي نوع؟»

فأجابت كاترين: «لقد اخبرني بأنه قد تحدث بعض

المشاكل، ولكن لم يخطر لي ببال أن حياتي قد تتعرض للخطر.»

واطلقت صرخة رعب وهي تهتف: «آه، يا ثيولا، يا ليتني لم أحضر إلى هذه البلاد. يا ليتني عدت إلى انكلترا، انا خائفة، اتسمعينني؟ خائفة.»

فأجابت ثيولا: «انا واثقة من أن كل شيء سيهدأ. إن الملك سيهتم بك. وبعد، فإنه سيأخذك إلى مكان آمن. لا بد أن حرسه الخاص سيساعدونه.»

فأجابت كاترين بارتياح: «نعم فهم جميعاً نمساويون، فقد كان الملك اخبرني كيف اختارهم بدقة بحيث يستطيع الاعتماد عليهم.»

فطمأنتها ثيولا بقولها: «إذن، فستكونين بخير. وسرعان ما ستعودين إلى هنا.»

صرخت كاترين: «وإلى أين يمكننا الذهاب؟ افرضي أنني أصبت بجراح؟»

كانت تتكلم وقد شحب وجهها من الخوف.

فعادت ثيولا تقول لها: «إنني واثقة من أن الملك سيهتم بك.»

وعندما همت كاترين بالجواب تعالى صوت صارخ من غرفة الجلوس: «كاترين، هل انت مستعدة؟»

كان هذا هو صوت والدها يناديها، وأجابت كاترين وهي تلتقط قفازي الركوب: «إني آتية، يا أبي.»

وركضت خارجة من غرفة النوم متجهة نحو غرفة الجلوس دون ان تقول لثيولا كلمة أخرى. وتناهى إلى مسامع ثيولا صوت خالها صارخاً: «هيا، تقدمي، إن الملك

www.rewity.com

ينتظرنا. لا أدري لماذا تتأخر النساء في ارتداء ملابسهن.»

فسألته كاترين: «هل ستأتي معنا، يا أبي؟»

فأجاب: «نعم، بالطبع، والآن، أسرعي، الجياد تنتظر عند الباب الجانبي.»

ولا بد انهما غادرا الغرفة اثناء حديثه لأن صوته اخذ يبتعد بينما وقفت ثيولا بين أشياء كاترين التي خلفتها وراءها متناثرة في كل مكان، ثوبها، خفاها، قفازاها الطويلان الأبيضان، وعلى كرسي هناك، كان ثوب الركوب الوردي اللون حيث ألقته ثيولا بعد أن كانت أخرجته من الخزانة ورفضت كاترين ارتداءه، وكانت ادراج منضدة الزينة مفتوحة قد تناثرت منها أدوات زينة كاترين أثناء تفتيش هذه عن المجوهرات التي وضعتها في جيوب ثوب ركوبها، وبحركة سريعة، أخذت ثيولا في إعادة كل شيء إلى مكانه، وتنظيم الغرفة.

وتساءلت عن المكان الذي أخذ إليه الملك وكاترين، وما لبثت أن فكرت بأنه اليونان.

كانت تعلم أن مدينة زانتوس لا تبعد سوى حوالي الساعتين عن الحدود، بينما كانت البانيا، في حال رغبتهم في الذهاب إليها، كانت أبعد كثيراً واكثر صعوبة.

فقد أدركت، بعد أن نظرت في الخريطة قبل حضورها إلى كافونيا، بأن كون البلاد محاطة بالجبال تقريباً، فقد كان الجانب الألباني أعلى واصعب منالاً، وكان هذا، دون شك، ما منع الأتراك من محاولة ضم كافونيا إلى الامبراطورية العثمانية.

كان السبيل الوحيد أمامهما هو أن يستقلا سفينة من

ميناء كيفيا. ولكن ثيولا فكرت بأن الثائرين لا بد سبق لهم التفكير في هذا، وانهم سيكونون بانتظارهم ليعتقلوا الملك إذا هو حاول الهرب إلى الميناء من الطريق الرئيسي.

وفكرت ثيولا في أن أي شخص ذا ذكاء كاف، لا بد من أن يدرك أن الخيار الوحيد أمام الملك للنجاة هو الذهاب عبر الريف.

وتساءلت كم من الاشخاص تضم المجموعة المرافقة للملك بما فيهم خالها وابنته كاترين. ولم تشعر بالإستياء قط لتركها بمفردها.

ورأت أن هذا ما كان عليها أن تتوقعه، وبعد، فقد قال خالها انها انكليزية، وهذا يعني أن الثوار لن يقتلوها، هذا إذا وجدت وقتاً تعلن فيه عن هويتها، وحدثت نفسها باسمة بأن عليها حتماً ان تلف جسمها بالعلم البريطاني.

ولكنها ما لبثت أن فكرت في أن ليس ثمة ما يبعث على التسلية في وضعها الحالي، وإنما الخوف، ولكنها كانت واثقة تماماً من أن خالها، مهما كان من عدم مبالاته بما يجري لها، لا بد انه أوصى احداً في القصر بالاهتمام بها، كان هناك عدد من الموظفين من كل الأنواع، كما كان هناك رجال القصر وزوجاتهم، ولا يمكن أن يكون بينهم من يحب أن يجعل ملكة المستقبل تستاء منه وذلك بإهماله لابنة عمتها ووصيفتها الخاصة.

وفكرت بهدوء في أن لا فائدة من البحث عن احد، فهم يعلمون مكانها، وربما إذا اتضح الوضع في

الخارج، سيأتي احد الاشخاص ليخبرها عما عليها أن تصنع.

عندما انتهت اخيراً من إعادة تنظيم غرفة كاترين سارت إلى غرفة الجلوس وهي تفكر لأول مرة في التفرج على الجناح الملكي.

كانت الغرف متصلة ببعضها البعض وبهذا لا يحتاج الملك والملكة للسير في الممر الرئيسي حيث يوجد الجنود دوماً في الحراسة.

وبهدوء، خوفاً من ان يكون ثمة من هو في الحراسة فتتعرض للأسئلة عن تصرفها هذا، فتحت الباب الذي كان خالها قد دخل منه إلى غرفة جلوس كاترين. وكان هذا ينفذ إلى غرفة انتظار صغيرة بالغة الجمال مزينة بالتحف الصينية. وقررت ثيولا أن تتفرج عليها بإمعان حالما يصبح لديها الوقت الكافي لذلك، ولكنها تقوم الآن بجولة استكشافية. وفتحت الباب القائم في الجهة الأخرى من غرفة الانتظار هذه.

ورأت أن هذا يؤدي إلى غرفة جلوس الملك، وكانت أوسع كثيراً من غرفة جلوس الملكة واكثر رزانة، ويقوم فيها مكتب ضخم ذو مقابض ممومة بالذهب، وتستقر فوقه أروع محبرة ذهبية رأتها ثيولا قط، وعلى جدارين من الغرفة، علقت لوحات رائعة مشغولة من القماش، وعلى الجدارين الآخرين كانت صور جميع افراد أسرته آل هابسبورغ، وقد بدت عليهم نفس الملامح التي تبدو على وجه الملك فرديناند.

وعلى ناحية من الرف الذي يعلو المدفأة، كانت هناك

لوحة تمثل إمبراطورة النمسا اليزابيت، والتي كانت قد وصفت بأنها أجمل امرأة في أوروبا.

ولكن كانت هناك شائعات تقول انها كانت في منتهى التعاسة نظراً لجو القصر الجاف الحافل بالقيود، في فيينا، وحدثت ثيولا نفسها وهي تنظر إلى وجه الامبراطورة الجميل، بانها لا تستغرب ذلك إذا كان الامبراطور فرانسوا جوزيف بمثل غطرسة الملك فرديناند.

ذلك انه منذ وصوله إلى كافونيا، وهو يتصرف وكأن قصره بمعزل عن الشعب خارجه، وكانت ما تزال تتذكر مظاهر الفقر المدقع في ذلك المنزل الذي أخذت إليه الطفلة المصابة، وتلك الأزقة الضيقة الحقيرة بأبوابها ونوافذها المغلقة، وذلك السكون المناقض تماماً لبقية أنحاء المدينة.

وتمنت لو كانت سنحت لها فرصة للتحدث إلى الكابتن بيتلوس بشأن ما حدث، ولكنها لم تجد فرصة للتكلم معه على انفراد منذ وصولها إلى زانتوس.

لم يكن ثمة شك في أنه كان يعلم من يكون اليكسيوس فازيلاس وذلك منذ اللحظة التي أقبل فيها هذا لأخذ الطفلة المصابة. وتذكرته ثيولا وهو يقول له همساً لكي لا تسمع قوله: «هل انت مجنون؟ إذا هم عرفوك فسيطلقون عليك الرصاص.»

لقد كان الكابتن بيتلوس مأموراً، كغيره من افراد الجيش، باطلاق النار على ذلك المتمرد حالما يراه، ولكنه لم يعص تلك الأوامر فقط، وإنما ادعى بأنه والد الطفلة.

وتساءلت ثيولا عما إذا كان اليكسيوس فازيلاس هو حقاً والد الطفلة، ولكنها عادت فاستبعدت هذا. ولكن لماذا يهتم اليكسيوس فازيلاس إلى هذا الحد بطفلة مصابة إذا كانت لا تمت اليه بصلة القرابة؟ وأخيراً، رأت ثيولا أن ليس لذلك أي تفسير إلا إذا كان هو يعتبر نفسه مسؤولاً عن أولئك الناس الذين يساندونه. كان كل هذا يبعث على الحيرة الشديدة، ولكنه لا بد أن يكون تحت أمرته، في هذه اللحظة، من القوة بين الكافونيين، ما جعل الملك يفر من قصره مذعوراً في الوقت الذي كان منتظراً منه الصمود وتجميع الجيش حوله.

ودقت الساعة الموضوعة على رف المدفأة، منبئة بمرور ساعة، ما جعل ثيولا تدرك ان الوقت، والذي كان قد تجاوز الحادية عشرة، قد تأخر.

وإذ لم يأت أحد ليتفقدها، أخذت تتساءل عما إذا كان خالها قد نسي ان يضع خبراً عن وجودها في القصر، وان رجال القصر، وموظفيه إما أن يكونوا ذهبوا إلى النوم، أو تركوا المكان.

وكان هذا تفسيراً للأمر لم تفكر فيه ثيولا من قبل.

هل من الممكن أن يكون الجميع قد رحلوا؟ كان هذا يبدو لها بعيد الاحتمال. أما الآن، بعد أن فكرت فيه، بدأت ترى كل شيء هادئاً على غير العادة.

وسارت نحو النافذة حيث أزاحت الستائر المخملية الثقيلة واخذت تنظر إلى الخارج، كانت نافذة غرفة جلوس الملك تطل على الحديقة وليس على باب القصر الأمامي، ولهذا كان من الصعب عليها أن ترى شيئاً ما

عدا ظلال الأزهار التي تزين الشرفات وكذلك السماء المرصعة بالنجوم.

ووقفت تنظر إلى أعلى وهي تفكر كم يبدو العالم صغيراً تحت السماء الرائعة المتألقة بنجومها السابحة في عمق الكون السحيق.

وقالت تناجي أباها في خيالها: مهما حدث، يا أبي، علي ألاّ اخاف، يجب ألاّ أكون جبانة فاصرخ، حتى ولو أصبت.

فقد كانت تدرك جيداً أن كاترين لم تكن شجاعة بتصرفاتها، رغم أن الجنود الذين ذهبت والملك بحراستهم، كانوا يتوقعون من أسرتهم أن يتحلوا بالشجاعة مهما تكاثرت الأخطار أمامهم.

وحدثت ثيولا نفسها بأنه ربما عليها أن ترى إذا كان هناك أحد قريباً منها. ثم عادت إلى وسط الغرفة.

وعندما وصلت إلى مكتب الملك، إذا بها تسمع أصواتاً ووقع اقدام ثقيلة في الممر خارجاً.

وقفت جامدة في مكانها واخذت تنصت، وفجأة، حدث شيء غير متوقع جعلها تجفل، إذ انفتح الباب الواقع في نهاية الغرفة بعنف لترى عدة جنود شاهري البنادق، قد وقفوا عند العتبة.

أرغمت نفسها على الجمود في موقفها مثبتة نفسها بالاستناد إلى المكتب بينما، في نفس الوقت، رافعة الرأس بكبرياء.

أخذ الجنود يجولون بأنظارهم في أنحاء الغرفة وكانهم يبحثون عن احد، ورأتهم ثيولا يرتدون ملابس الجيش الكافوني.

كانت على وشك التحدث إليهم بلغتهم، عندما رأت بينهم رجلاً نظرت إليه غير مصدقة.

كان يرتدي بذلة عسكرية، فلم تكد تصدق عينيها.

ولكنه كان اليكسيوس فازيلاس بعينه، سألها بالالمانية: «أين الملك؟»

وأدركت حين تكلم، أنه قد عرفها، وعاد يسألها: «أين الملك؟» وكان يتكلم هذه المرة بالانكليزية.

فأجابت: «لقد ترك القصر.»

«منذ متى؟»

فسألته: «لماذا أنت هنا؟ ولماذا ترتدي هذه الثياب؟»

أجاب: «إني امثل الشعب الكافوني، وأنا الآن قائد الجيش الكافوني.»

كان يتكلم بفروغ صبر وكأنه لم يكن يحب ان يجيب على أي اسئلة، ولكنه عاد يقول قبل ان تتمكن ثيولا من النطق: «يجب ان تخبريني في أي ساعة غادر الملك القصر.»

«منذ مدة طويلة.»

«هل كان ذلك منذ ساعة؟ ساعتين؟»

ألقى إليها اليكسيوس فازيلاس بهذا السؤال بحدة، فأجابت بعد لحظة تفكير ونظرة ألقتها على الساعة: «ربما منذ ساعة ونصف فانا لست واثقة. إنني في الواقع، لم أره وهو يغادر.»

«لا بد ان خطيبته قد غادرت معه؟»

فأجابت: «نعم، هذا صحيح.»

«ولكنهم تركوك خلفهم، لماذا؟»

فأجابت: «ذلك لأنه لا أهمية خاصة لي، كما أن خالي

كان واثقاً من أنني ساكون في امان بصفتي انكليزية.»

فأجاب اليكسيوس فازيلاس: «ولكن بطبيعة الحال، لن يتدخل مواطنوك في مشاكلنا حتى ولو سمعوا بها، ولكن الهوية البريطانية، طبعاً، ذات حصانة.»

فقالت: «إني شاكرة لك تاكيدك ذلك.»

«ستكونين في أمان على أن تحبسي نفسك في غرفتك والتي لا اظنها هذه الغرفة.»

أجابت: «ان غرفتي بجانب غرفة الملكة.»

فقال: «إذن، فستبقين في جناح الملكة، وساتدبر أمرك فيما بعد. وإلى ذلك الحين عليك بملازمة الغرف المخصصة لك.»

ورأته ثيولا يتحدث إلى مجند. وإذ شعرت بأنه عاد مرة أخرى ينظر إليها بازدراء وكراهية، رفعت رأسها عالياً وهي تسير خارجة من غرفة الملك إلى غرفة الانتظار.

سمعت وهي خارجة اليكسيوس فازيلاس يتكلم بلهجة حادة، ومع انها لم تستطع فهمها فقد أدركت أنه يحاول اعتقال الملك وكاترين وذلك بإرسال جنود لهذا الغرض.

دخلت غرفة جلوس الملكة حيث جلست على كرسي.

كان واضحاً تماماً ان اليكسوس فازيلاس يقوم بثورة سياسية وان قسماً كبيراً من الجيش أصبح الآن، كما قال، تحت إمرته، كان هذا يعني ان الملك كان يعتمد فقط على جنوده النمساويي الأصل.

كان في الجيش، على كل حال، عدد من المرتزقة، كما

www.rewity.com

كان قال الكابتن بيتلوس، وكان من المحتمل ان يكون ولاؤهم للملك وليس للمتمردين عليه.

وطبعاً، كان هناك دوماً احتمال بأن يرغب الملك جورج ملك اليونان في ان يساند الملك.

وفكرت ثيولا في الدم الغزير الذي سيسفك، وتصورت ما سيحصل من الرعب إذا كان هناك، بدلاً من احتفالات الزفاف الملكي بالأزهار والأعلام وغير ذلك من الزينات في الشوارع، كان بدلاً منه حرب اهلية.

فقد كان من غير المعقول الاعتقاد بأن كل كافوني كان يساند اليكسيوس فازيلاس.

كان هنالك كثيرون، خصوصاً اصحاب المتاجر والحرفيون وأولئك الذين يمدون القصر بالاثاث النفيس والذين سيخسرون كثيراً إذا لم يعد هناك ملك يعيش بالبذخ والاسراف.

وحدثت نفسها قائلة، لشد ما أكره الحروب... كل الحروب.

جلست في غرفة الجلوس، لأنها خافت من أن تذهب إلى فراشها فيأتي اليكسيوس فازيلاس ليتحدث إليها مرة أخرى، فيسبب لها حرجاً بالغاً. ولكنها كانت تشعر بتعب شديد.

فقد كانت أمضت يوماً مرهقاً في خدمة كاترين، لتجيء بعد ذلك الصدمة لما حدث، ثم الخوف المستمر من المستقبل رغم محاولتها التخلص من هذا بالضحك... كل هذا جعلها تشعر بالإرهاق، وكانت جالسة في مقعدها عندما سمعت طرقاً على الباب.

عدلت جلستها بسرعة بينما كان الباب يفتح، ولكن الواقف في العتبة لم يكن اليكسيوس فازيلاس ولكنها الخادمة المتوسطة بالسن والتي كانت تهتم بخدمتها منذ قدومها إلى القصر.

كان اسمها ماغارا، وشعرت ثيولا بالسرور لرؤيتها بعد ساعات طويلة من الوحدة.

هتفت تقول: «ماغارا، ما أشد سروري برؤيتك. ما الذي حدث؟ ما الذي يجري خارج القصر؟»

اغلقت ماغارا الباب، ولكن ثيولا استطاعت ان تلمح جندياً واقفاً خارج الباب.

أجابت المرأة: «لقد ارسلني الجنرال اليك، يا آنسة.»

فسألتها ثيولا مستفهمة: «الجنرال؟»

«نعم يا آنسة. الجنرال فازيلاس.»

«وهل هو جنرال؟»

«إنه قائد الجيش، وقد احتلوا المدينة، يا آنسة.»

ابتسمت المرأة ثم تابعت تقول: «انها اخبار طيبة، يا آنسة. اننا جميعاً في غاية السعادة. إن ذلك ما كنا دوماً نأمل بأن يحدث.»

فسألتها ثيولا غير مصدقة: «هل كنتم تريدون أن تقوم ثورة؟»

«كنا نريد اليكسيوس فازيلاس في مكانه الصحيح. فهذا هو مكانه، يا آنسة.»

ثم بدا الخوف على ماغارا وكأنها شعرت بانها تكلمت اكثر مما يجب.

وقالت بصوت خافت: «ما كان لي أن اتكلم هكذا،

عليك ان تسامحيني، يا آنسة، إذا كنت قد نسيت نفسي.»

«أريدك ان تخبريني بالحقيقة.»

«لقد قال لي الجنرال ان امكث هنا للاهتمام بك.»

«الا يريد هو أن يكلمني؟»

«كلا يا آنسة، ان الجنرال مشغول جداً، وهو حالياً ليس في القصر.»

وقرع الباب، فذهبت ماغارا لتفتحه وهي تقول: «لقد طلبت لك شراباً دافئاً قبل صعودي إليك، يا آنسة.»

فقالت ثيولا: «ما ألطف هذا منك.»

وتناولت ماغارا الصينية من حاملها، بينما لمحت ثيولا الآن جنديين خارج الباب، وحدثت نفسها بأنها قد اصبحت سجينة، ولكنها اخذت تفكر في مبلغ اهتمام الجنرال فازيلاس، كما يسمي نفسه، إذ فكر في إرسال ماغارا لخدمتها.

وخفف عنها كوب الحليب الدافيء، كما هدأت مخاوفها بوجود ماغارا معها. وقالت لها المرأة: «إذهبي إلى سريرك، يا آنسة. فسيكون هناك الكثير من الأحداث غداً، وربما سيحدث قتال.»

فهتفت ثيولا بذعر: «أرجو ألاّ يحدث هذا.»

فقالت ماغارا: «وأنا مثلك أرجو ألاّ يحدث هذا. فقد قتل أبي، عندما كنت طفلة، أثناء ثورة، ولأن بيتنا كان أحرق فوق رؤوسنا، مات أخي الصغير برداً أثناء هربنا إلى الجبال.»

فسألتها ثيولا: «اتظنين الملك يملك قوة كافية لمحاربة الجنرال فازيلاس؟»

أجابت ماغارا: «لا أدري، يا آنسة. لماذا لم تذهبي مع اقاربك الانكليز؟»

فابتسمت ثيولا، ثم قالت: «الأمر بسيط جداً، فهم لم يريدوني معهم، يا ماغارا. لقد كان الملك في عجلة من أمره، ولم يستطع أن يأخذ معه سوى اللايدي كاترين ووالدها.»

وشعرت بأن ما قالته يفهم منه الانتقاد، فأضافت تقول: «لا بد أنه بقي في القصر كثير من الناس يمكنهم ان يهتموا بأمري، أين هم؟»

«لقد ذهب كثيرون منهم، وكثيرون يحزمون الآن امتعتهم. فقد أمرهم الجنرال بمغادرة القصر.»

فسألتها ثيولا: «جميعهم؟»

«كل من هو نمساوي، يا آنسة، وهذا يعني كل شخص هنا ما عدا الخدم.»

إنها قسوة أكيدة من اليكسيوس فازيلاس. وبعد لحظة، سألت وهي تفكر في كل موظفي القصر ذوي النبرات المنمقة سألت المرأة: «هل هم ذاهبون دون أي اعتراض؟»

«لقد سبق وسلموا اسلحتهم، يا آنسة، وهناك مجموعة كبيرة منها في وسط القاعة الرئيسية يحرسها عدد من الجنود.»

فلم تجب ثيولا، وبعد لحظة قالت ماغارا بلهجة المربية الحنون: «تعالي ونامي، يا آنسة. انك ستنامين في فراش الملكة، وإذا سمحت لي، فسأنام في غرفتك.»

فقالت لها: «نعم، بالطبع يا ماغارا، هذه فكرة جيدة.»

فكرت في أن من غير الممكن أن تستطيع النوم، ولكن الشراب الحار الذي تناولته سرعان ما اسلمها إلى الغيبوبة حالما مس رأسها الوسادة.

* * *

إستيقظت ثيولا مجفلة على وقع خطوات عسكرية تحت نافذتها مختلطة بأوامر عسكرية، وبعد لحظة أدركت ان الجنود الحرس يتغيرون الآن وان الساعة لا بد ان تكون السابعة صباحاً.

فكرت في الذهاب إلى النافذة، ولكن ما أن جلست في فراشها حتى دخلت ماغارا حاملة صينية وهي تقول: «فكرت في أن صوت الجنود لابد سيوقظك من النوم، ولهذا احضرت اليك صينية الافطار.»

نظرت ثيولا إلى الخبز الطازج فوق صينيتها، والزبدة الذهبية، وقرص العسل. وشمت رائحة القهوة العبقة فادركت أنه نفس الافطار الذي تعودته يومياً منذ قدومها إلى القصر.

وكأنما أحست ماغارا بسؤالها الخفي، فقالت: «ان خدم المطبخ يعملون كالعادة. إن جميع الطهاة هنا، باستثناء الرئيس فيهم، هم من الكافونيين.»

فسألتها ثيولا: «وماذا عن رئيسهم ذاك؟»

«لقد اختفى، يا آنسة. ونظن أنه لا بد ذهب مع الملك. لقد كان رجلاً في غاية الجبن.»

فضحكت ثيولا، وقالت وهي تسكب القهوة: «ما الذي يحدث، يا ماغارا؟»

«أشياء كثيرة جداً، يا آنسة، هناك جنود في كل مكان مع ضباط جدد يوجهون إليهم الأوامر.»

فقالت ثيولا: «اظنهم كافونيين.»

«انهم اتباع الجنرال، يا آنسة، الذين كانوا معه أثناء اختبائه في الجبال.»

«وهل كان هو هناك؟»

«كان يأتي إلى المدينة احياناً، ولكن ذلك كان يشكل عليه خطراً، خطراً كبيراً يا آنسة، وكنا نشعر بالخوف عليه حين نراه.»

«وهل كنتم تعلمون أنه كان هنا؟»

«لقد جلب إلينا الأمل، يا آنسة. الأمل في أننا يوماً ما، سنصبح احراراً.»

فمسحت ثيولا قطعة خبز بالزبدة قبل أن تقول: «هل الجنرال فازيلاس متزوج؟»

«كلا، يا آنسة، لقد كنا دوماً نظن انه سيتزوج إبنة عمه أثينا فازيلاس، ولكن كيف يمكن لرجل ان يتزوج وهو دون بيت وثمة ثمن موضوع لرأسه؟»

فسألتها ثيولا: «ألم يجعل النمساويون مكافأة لمن يسلمه من اتباعه؟»

«نعم، مبلغاً كبيراً جداً يغني الرجل الذي يحصل عليه طوال حياته، ولكن لا احد يمكن أن يخدع اليكسيوس فازيلاس، فهو كان دوماً قائدنا الوفي، واملنا الوحيد للمستقبل.»

فسألتها: «والآن؟»

فأجابت: «إننا جميعاً في غاية السعادة، يا آنسة، ولكننا

خائفون... نعم، نحن خائفون لأننا لا نملك الكفاية من الأسلحة والبنادق، لكي نحمي انفسنا.»

ولم تتكلم ثيولا، وبعد لحظة قالت ماغارا: «انك ستتفهمين الأمر، يا آنسة، فنحن فقراء جداً. ليس لدينا نقود ولا مسدسات، ولا بنادق. والبارود غالي الثمن جداً، ومع هذا، نحن جميعاً نعطي سنوياً ما يمكننا إعطاؤه.»

فسألتها ثيولا: «اتعنين انكم بقيتم وقتاً طويلاً تجمعون المال لهذا الأمر؟»

أجابت المرأة: «منذ تسع سنوات، يا آنسة. منذ عاد اليكسيوس فازيلوس إلى كافونيا.»

«وهل كان في الخارج؟»

«لقد كان نفي وأمه من البلاد عندما جاء الملك إلى السلطة، ولم يكن هذا بسبب أي شيء اقترفه، يا آنسة، فهو لم يكن سوى غلام. ولكن الملك خاف من أن يفضل الشعب ملكاً من آل فازيلاس.»

فقالت ثيولا: «وهكذا نفاهما من البلاد.»

أجابت المرأة: «لقد توفيت أمه الأميرة، وأظن أن ذلك كان في إيطاليا، يا آنسة، وعندما أصبح اليكسيوس فازيلاس رجلاً واعياً عاد إلى الوطن.»

«وهل كان ذلك منذ تسع سنوات؟»

«نعم، وكان في الحادية والعشرين. وعندما علمنا أنه هنا، انتعشت قلوب الكافونيين جميعهم. كان ذلك أشبه بضياء يلتمع في الظلام.» وفكرت ثيولا بأن هذا ما كان عليها أن تتوقعه. إنه الضياء الذي كان اليكسيوس

فازيلاس، لا بد سيأتي به إلى الشعب الذي وضع ثقته به.

كان من الصعب أن تبقى في غرفتها بينما تحدث كل هذه الأشياء في الخارج، وتاقت نفسها إلى أن تكون جزءاً منها. ولكن عندما انهت فطورها، اخبرتها ماغارا ان من غير المسموح لها بمغادرة غرفة الجلوس.

فقالت ثيولا ضارعة: «ألا يمكنني على الأقل الذهاب لرؤية ما يحدث في فناء القصر من الناحية الأخرى؟»

فسألت ماغارا الجنود الحراس، ولكنهم رفضوا. فقالت لها: «انهم مأمورون، يا آنسة، بألاّ يسمحوا لك بالخروج من الغرفة.»

فقالت ثيولا: «إنني متفهمة لذلك.»

ولكنها كانت تشعر بخيبة الأمل، والحديقة الخلفية الهادئة السابحة في أشعة الشمس، والتي كان بإمكانها رؤيتها من نافذتها، كانت لا تكاد تشفي غليلها لرؤية الأشياء التي لا بد أنها كانت تحدث في الناحية الأخرى من هذا القصر.

لم يكن لديها ما تعمله. وعندما حاولت ان تطالع بعض الكتب التي كانت في غرفة الجلوس، والتي كانت جميعها باللغة الالمانية، وجدت أنه من الصعوبة ان تركز ذهنها في أي شيء خلاف الثورة.

وأرسلت ماغارا إلى الطابق الأسفل اكثر من عشر مرات لترى ما كان يحدث، فكانت هذه تعود إليها ببعض الأخبار المتقطعة التي كان على ثيولا أن تحاول جمعها وتفسيرها لتخرج، في النهاية، بصورة عامة عن الوضع.

«لقد رحل جميع النمساويين، يا آنسة، كانت النساء منهم يبكين وينتحبن، والرجال يشتمون.»

«وإلى أين ذهبوا؟»

«لقد خصص لهم الجنرال سفينة لتذهب بهم إلى نابولي. أما ما أزعجهم فهو أنه لم يكن من المسموح لهم أن يأخذوا معهم سوى القليل من ممتلكاتهم. فالكثيرون منهم قد اصبحوا فاحشي الثراء منذ حضورهم إلى كافونيا.»

فسألتها ثيولا: «وماذا فعلوا ليصبحوا كذلك؟»

أجابت ماغارا: «كان اكثرهم يرتشون يا آنسة.»

فعادت ثيولا تسألها: «ولكن من كان يقدم إليهم الرشاوى، ولأي غرض؟»

«التجار، اصحاب المصانع، الرجال القادمون من مختلف البلدان ببضائع قد تعجب الملك، لم يكن يستطيع احد ان يحظى بالمقابلة الملكية إلا بمساعدة من الوصفاء والسكرتارية وكثيرين غيرهم.»

فقالت ثيولا: «حسناً، كل ما أرجوه ان يستعمل ما خلفوه وراءهم، في حاجته الحقيقية.»

«كوني واثقة يا آنسة من أن هذا ما سيحدث. لقد أذاع الجنرال تهديداً بأن كل من ينهب منزلاً أو أي مكان آخر، فسيتعرض لعقاب أليم.»

فسألتها ثيولا: «وهل سيطيعونه؟» فقد تاه بها الفكر إلى قصص كانت قرأتها عن جنود كانوا ينهبون ويحرقون ويدمرون البلاد التي كانوا يغزونها.

فقالت ماغارا ببساطة: «إنهم سيطيعونه لأنه يفهم مشاعرهم وما عانوه طوال السنوات الماضية.»

لقد أدركت ثيولا الآن أن ماغارا لم تكن تبالغ حين كانت تتكلم عن المعاناة.

لقد علمت بأن أي شخص كان لديه شيء من الممتلكات مهما كانت صغيرة، أو مزرعة، كان مطلوباً منه تسليم نصف محصولها ونصف مؤنة أسرته السنوية، وذلك كل عام، إلى ممثل الملك.

وكان الفتيان في سن السابعة عشرة، يستدعون للتجنيد الإجباري في الجيش الكافوني، وعندما يبلغ والدا رجل ما، الكبر، ويعجزان عن فلاحة أرضهما وزرعها، فإن السلطة الحاكمة تصادرها.

كانت المواد الغذائية غالية، وسكان المدن كانوا غالباً أقرب إلى المجاعة لا لشيء إلا لأنهم لم يكونوا ينتجون ما يكفي لشراء تلك المواد.

لقد أدركت ثيولا أن البلاد بأكملها كانت تدار كلياً، تبعاً لمصلحة الملك فقط. وحينما كان يريد ان يبني أي شيء، كالقصر الملكي أو قصراً آخر في الجبال، لإقامته أثناء رحلات الصيد، والذي كانت ثيولا قد علمت أنه قارب الانتهاء، فقد كانت الأموال اللازمة لذلك تجمع كلها تقريباً من الفلاحين.

فلا عجب ان هم اعتبروا اليكسيوس فازيلاس قائدهم الذي سيحطم قيودهم ليعيدهم أحراراً كما كانوا من قبل أن يأتي الملك النمساوي. وحدثتها ماغارا عن البهجة الكبرى التي تعم الشعب في زانتوس، فقالت: «ان الشعب يرقص ويغني طوال اليوم، حتى الجنود يضعون أزهاراً خلف آذانهم وفي قبعاتهم، وقد أمر الجنرال بتقديم

www.rewity.com

الطعام إلى الفقراء الذين لا يملكون نقوداً لشرائه.»

وشعرت ثيولا بخيبة أمل كبرى لعدم تمكنها من رؤية ما يحدث أو الاشتراك فيه.

تناولت العشاء الذي احضرته إليها ماغارا، ورغم جودته، إلا أنها لم تكن جائعة فازاحت الطبق من أمامها بعد عدة لقيمات، فسألتها ماغارا: «ألست جائعة، يا آنسة؟»

فقالت ثيولا: «أريد أن أرى الجنرال، لا يمكن أن أبقى هكذا سجينة دون أن يبالي بي أحد.»

«إنه مشغول جداً، يا آنسة، ربما سيجد غداً وقتاً يتحدث فيه إليك.»

ولكن ثيولا خشيت أن يكون الغد يوماً آخر تبقى فيه وحدها في هذا السجن الجميل المريح، ولكنه يبقى سجناً على كل حال.

ولم تكن مخطئة، فقد مر اليوم الثاني كالأول تماماً.

وسألت المرأة بضراعة: «ما الذي يحدث؟ اخبريني عما يحدث بالضبط، يا ماغارا.»

فقالت ماغارا: «فهمت، يا آنسة، أن الملك قد وصل إلى الحدود، وأن الجنود الذين يساندونه متمركزون هناك.»

فسألتها ثيولا: «أين؟»

«حيث تلتقي كافونيا باليونان، يا آنسة، هذا ما اخبرنا به أحد الجنود، ولكنه طبعاً، لا يعلم الكثير، والجنرال لا يثق بأي كان فيكشف له عما يحدث.»

فقالت ثيولا: «أتمنى لو يثق بي، حاولي أن تعرفي اكثر من هذا، يا ماغارا.»

وبذلت ماغارا جهدها، ولكن دون فائدة.

وسألتها ثيولا: «هل هناك قتال؟»

«أظن كان هناك شيء من القتال بين بعض المرتزقة الذين أرادوا الإلتحاق بالملك، وبين الكافونيين الذين اعترضوا طريقهم. ولكن القتال لم يكن جدياً تماماً.»

وفيما بعد، عند العصر، قالت ماغارا تخبر ثيولا: «سمعت، يا آنسة، ان الجنرال قد أصدر أمراً إلى كل شخص خارج زانتوس بأن يأتي إلى المدينة. انه يقول بأنهم سيكونون آمنين هنا اكثر، كما ان اصحاب المزارع يأتون بقطعانهم. انهم محتشدون في ساحة السوق الكبير.»

فقالت ثيولا: «إني اعجب لعمله ذاك.»

فلم تستطع ماغارا ان تفيدها بشيء، ورغم انها كانت امرأة ذكية، إلا انها لم تستطع إلا أن تبلغها بما كانت تسمعه أو تراه، فكان على ثيولا أن تستخلص النتائج من كل ذلك، بنفسها.

كان الوقت اواخر العصر، وكانت ثيولا قد فرغت من تناول عشائها، عندما سمعت من النافذة صوت بكاء.

كانت الليلة دافئة، فاتكأت على عتبة النافذة وهي تتساءل عن مصدر ذلك الصوت.

قالت لماغارا التي كانت ترفع غطاء المائدة: «اسمع صوت اطفال.»

«نعم يا آنسة. هناك اطفال في الغرفة التي تحت غرفتنا هذه.»

فسألتها ثيولا: «اطفال؟»

«هنالك عدد منهم ضاعوا أو جرحوا أثناء القتال.»

«لم اكن أعلم قبلاً بوجودهم.»

«كان عددهم قليلاً، يا آنسة، عندما دخل الجنرال المدينة، اطلق عليه الحرس النمساوي النار، ولكنهم عندما رأوا كثرة عدد الجنود الذين تركوا خدمة الملك، استسلم البعض منهم، وهرب آخرون.»

وتساءلت ثيولا بصوت مرتفع: «وهكذا اصيب الأطفال أثناء ذلك.»

فقالت ماغارا: «لقد أمر الجنرال بإحضارهم إلى هنا إلى أن يعثر على آبائهم، وهم ليسوا كثيري العدد.»

وحملت الصينية وهي تتابع قائلة: «إذا لم تكوني بحاجة إليّ، يا آنسة، فأنا أرغب في الخروج لفترة قصيرة، هناك احتفالات احب التفرج عليها.»

فأجابت ثيولا: «طبعاً، يا ماغارا، إذهبي وأفرحي نفسك. ياليتني استطيع مرافقتك.»

فأجابت ماغارا: «الجنرال لا يريد ذلك، يا آنسة.» ثم سارت إلى الباب تقرعه لكي يفتحه لها الحراس.

وتنهدت ثيولا. إذا كان الجنرال يقصد بمعاملته هذه لها، معاقبتها على كونها قريبة لخطيبة الملك، فقد نجح في ذلك حتماً. إنها لم تعد تحتمل الوحدة والجهل بما يحدث خارج هاتين الغرفتين المزخرفتين الرائعتي الجمال.

وحدثت نفسها قائلة: «لو كان أبي موجوداً لشعر بالخزي من عدم اتكالي على نفسي لفهم ما يجري.»

وسارت نحو النافذة وأزاحت الستائر، وإذا بأنوار ملونة

ترتفع نحو السماء فأدركت من الصوت انها الألعاب النارية تنطلق في المدينة.

وكانت تلمح احياناً العاباً نارية اخرى فأدركت انها لن تستطيع رؤيتها إلا من الناحية الأخرى للقصر.

رفعت بصرها إلى السماء المرصعة بالنجوم، ثم عادت به إلى الحديقة حيث اخذت تستنشق شذا الأزهار. ومرة أخرى، تناهى إلى مسمعها صوت بكاء الاطفال.

كان البكاء الآن يبدو أقوى مما كان قبلاً، وكان هناك في الواقع طفل يصرخ.

فكرت ثيولا بأنه لا بد أن يكون هناك من يعتني بهم.

وانصتت... ولكن الصراخ لم يتقطع كما يحدث عندما يحمل الطفل ويهدهد.

ولم تستطع ان تصدق ان من الممكن ان يتركهم الجنرال دون رعاية، ولكن تلك الرعاية لم تكن موجودة.

وساءلت نفسها عما إذا كان بإمكانها النزول إليهم.

تذكرت أن في الغرفة التي كانت تنام فيها أولاً، يوجد باب يؤدي إلى ممر جانبي وليس إلى الممر الرئيسي مثل غرف الملك والملكة هذه. وسارت نحو غرفة ماغارا.

كان الباب المؤدي إلى الممر غير مقفل، ففتحته بهدوء وبطء بالغين.

ولم يكن ثمة حرس في الخارج، فانسلت خارجة، مغلقة الباب خلفها.

كان الممر يقود إلى الممر الرئيسي، ولكن كان ثمة ممر آخر يقابله، رأته ثيولا خالياً من الحراس.

سارت على أطراف اصابعها إلى زاوية الممر، ثم أخذت تتلصص.

كان الجنود الحرس خارج غرفة جلوسها، مستغرقين في الحديث، كما كانوا بعيدين نوعاً ما، وكان الممر معتماً.

حملت خفيها بيدها، وجذبت نفساً عميقاً ثم ركضت.

وصلت إلى آخر الممر، ثم وقفت منصتة. لم يكن هناك صوت عدا تمتمات الحراس، فأدركت انهم لم يروها.

أصبح عليها الآن أن تجد طريقها إلى الطابق الأسفل، ولم يكن هذا صعباً.

ابتعدت عن مركز البناء حيث السلالم الرئيسية لتجتاز عدة ممرات صغيرة، ولتجد في النهاية بعض السلالم الثانوية والتي كان معلقاً على جدارها صور ملوك النمسا، ففكرت بأنها السلالم التي يستعملها موظفو القصر.

ونزلت بسرعة إلى الطابق الأسفل وإذا بها تجد المزيد من الممرات غير المحروسة من الجند.

وحيث أنه كان لديها احساس دقيق بالإتجاهات لم تجد صعوبة في العثور على طريق إلى الغرف التي أدركت بأنها تقع تحت جناح الملكة مباشرة.

وتوقعت احتمال وجود حرس هناك أيضاً، فسارت ببطء في الظل وإذا بها ترى واحداً منهم. ولكنه كان يوليها ظهره ومواجهاً للقاعة حيث كانت ثيولا واثقة من وجود حرس آخرين فيها.

رأت أنهم لم يكونوا يقومون بمهمتهم بشكل جاد حيث انه لم يكن لديهم ما يحرسونه سواها والأطفال، أمكنها الآن ان تسمع صراخ الأطفال، وبعد ذلك بلحظة، كانت قد اصبحت

في الغرفة معهم، لا بد أنها كانت غرفة مكتب واسعة وقد حولت إلى غرفة للأطفال.

كانت تحتوي على ثلاثة أسرة عادية الحجم، وثلاثة فرش على الأرض، وسرير مزخرف لطفل رضيع.

لم يكن ثمة أثر لأي شخص راشد في الغرفة بينما كان الأطفال جميعاً يبكون في وقت واحد، فسارت من واحد لآخر إلى ان علمت سر ذلك. فالطفل الذي كان يصرخ، كان رأسه ملفوفاً بضماد قد انزاح عن رأسه فغطى عينيه.

وما ان سوته، حتى توقف الطفل عن الصراخ وهو يقول مرة بعد مرة باللغة الكافونية: «أمي، أمي.»

فقالت: «انها ستأتي حالاً، حاول ان تنام. فهي تريدك أن تستريح.»

وفي السرير الثاني كانت فتاة صغيرة مضمدة اليدين وقد اشتبك الضماد باغطية الفراش، فاخذت تكافح لتحرير نفسها.

وبدا الرضيع جائعاً، وكان شخص ما قد وضع زجاجة الحليب في فمه، ولكنها انزلقت إلى ناحية ولكن الرضيع كان اصغر كثيراً من ان يستطيع إعادتها إلى فمه.

وشعرت ثيولا بالحليب بارداً في الزجاجة، ففكرت في تدفئتها له، ولكنه اخذ يمتصها بشراهة افصحت عن جوعه الشديد وبالتالي إصراره على عدم التخلي عنها.

واسندت ثيولا الزجاجة بعناية كيلا تنزلق مرة أخرى، ثم تركته إلى سرير آخر.

كان الأطفال الآخرون يبكون لاستيائهم من الضجة التي كان يحدثها الآخرون ما جعل الخوف يمتلكهم.

أخذت في تهدئتهم وتغطيتهم جيداً وهي تتحدث إليهم طوال الوقت، تخبرهم بأن امهاتهم سيأتين حالاً وان عليهم أن لا يبكوا وبذلك يذهبون إلى بيوتهم.

وهكذا لم يمض وقت قصير حتى ساد السكون الغرفة، وأخلد اغلب الأطفال إلى النوم، وكانت ثيولا تستوثق من الضماد الذي يحيط برأس الطفلة لتتأكد من عدم انزلاقه مرة أخرى، عندما سمعت صوتاً عند الباب.

استدارت فرأت جندياً وقد وقف يراقبها، قالت له باللغة الكافونية: «لقد كان الأولاد يبكون، فجئت لكي أعتني بهم.»

فلم يجب الرجل واستمر يحدق بها.

فقالت: «إنهم بخير الآن، ولكن لا بد أن يكون هنا من يبقى معهم.»

كانت قبعته قد انزلقت إلى خلف رأسه بينما كان يحمل بندقيته بشكل غير مستقيم.

فقالت: «حسناً، اظن الأطفال سيبقون هادئين الآن إلى حين عودة من يهتم بهم.»

وعادت تنظر إلى الجندي متشككة، وقد رأت أنه ليس من النوع الذي يصح أن يستلم المسؤولية.

وفكرت ثيولا في أنه لا بد أن يكون احد اتباع الجنرال فازيلاس ممن لم يرتدوا ملابس عسكرية حتى هذه اللحظة.

أجالت نظراتها بين الاطفال للمرة الأخيرة.

كانوا هادئين تماماً وقد نام الرضيع وهو مازال يمتص الحليب.

سارت نحو الباب وهي تقول: «ربما من الأفضل أن اعود إلى غرفتي.»

ولكن الجندي لم يتحرك.

كان يترنح قليلاً أثناء وقوفه بينما شعرت ثيولا فجأة وهي ترى النظرة في عينيه، بعدم الإرتياح.

قالت له: «دعني أمرّ، من فضلك.»

فلم يمتثل لما تقول. وإذ شعرت بأنه لم يفهم قولها، حاولت ان تمر من امامه لكي تخرج.

عند ذلك ألقى بالبندقية من يده ثم تقدم نحوها.

فصرخت: «دعني اذهب. كيف تجرؤ؟»

حاولت الخروج من الغرفة، ولكنها لم تستطع المرور.

فعادت تصرخ: «دعني أذهب.»

فلم يجب، ثم تملكها اليأس وهي تفكر في انها ستموت حتماً من الرعب.

وفجأة، دوّى صوت رصاصة يصم الآذان.

وشعرت ثيولا بالرجل يندفع إلى الأمام ساقطاً.

وسمعت صوت ارتطام جثة الرجل بالأرض ثم صوت رجل يقول بالانكليزية بلهجة خشنة: «ما الذي تفعلينه هنا؟ ولماذا لست في غرفتك؟»

رفعت عينيها إلى وجه اليكسيوس فازيلاس.

ومنعها الخوف والصدمة من إجابته.

قال بحدة: «لقد اعطيت أمراً بأن تمكثي في غرفة الملكة، فلماذا خالفتني؟»

وانتظر جوابها، فقالت بصوت لا يكاد يسمع: «كان... الأولاد... يبكون.»

وشعرت دون ان ترفع وجهها ان الجنرال قد أجال الطرف حوله، وعندما لم ير في الغرفة راعية للأطفال، قال غاضباً: «لقد أمرت بإحضار من يعتني بهم.»

فتمتمت تقول: «أظن المرأة... قد ذهبت.»

فقال: «سأبحث في هذا الأمر. هل يمكنك المشي؟»

فأجابت: «اظن... ذلك.»

سألها باهتمام: «هل أنت بخير؟»

«أنا الآن... بخير تام.»

فقال: «سأعود إليك بعد ان ابحث مسألة الأطفال.»

واستدار يغادر الغرفة، ثم سمعته يتحدث بحدة إلى الجنود في الخارج.

صعدت إلى غرفتها، ثم اسرعت نحو الخزانة لتحضر ثوباً آخر لتبديل ملابسها.

وكانت ماغارا قد علقت لها ثيابها مع ثياب كاترين، وعندما فتحت باب الخزانة، أخذت اثواب كاترين الحريرية تخفق مع النسيم، وقد بدت بخفة وجمال أزهار الربيع.

ونظرت ثيولا إلى أثوابها هي السميكة القماش القبيحة الطراز، وما لبثت أن قررت بأن ارتداء واحد منها سيرهقها.

وبدلاً من ذلك، اخرجت من الخزانة أحد فساتين كاترين.

ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس لتنتظر الجنرال.

وفكرت في انها ستتحدث إليه. فقد سبق وشعرت بالحرج وهي تعلم أنه يستخف بها. وتذكرت نظرة الإزدراء في عينيه، ولكن ذلك كان قبل أن تتعمد عصيان أوامره فتترك أمان غرفتها ومن ثم تتسبب في اطلاق الرصاص عليه.

وكان التفكير في تسببها هذا بموت رجل، يسبب لها رعباً لم تستطع معه إطالة التفكير في ذلك. ولكن الجنرال قتله لينقذها، فأدركت ان عليها أن تشكره مهما كان ذلك الأمر صعباً على جندي.

وخيل إليها أنه مر وقت طويل قبل ان تسمع الجنود في الخارج يقفون في حالة استعداد، ثم تسمع طرقاً على الباب.

فقالت: «ادخل.» وشعرت وكأن الكلمة تختنق في حلقها.

وما لبثت، عندما اتجه نحوها، أن وقفت ثم حييته احتراماً فسألها: «هل تشعرين بتحسن، يا آنسة وارين؟»

وشعرت بالإرتياح إذ لم تلمح الغضب في صوته.

فابتدأت تقول: «انا... انا بخير تماماً... ثم إنني يجب أن... اشكرك...»

فقاطعها قائلاً: «ليس ثمة ما يدعوك إلى شكري. وإنما انا الذي ادين لك ببالغ الإعتذار عن تعرضك للإهانة على يد كافوني.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «ولكنك الآن تعلمين ان عصيانك قد عرضك إلى مثل هذه المواقف.»

فقالت: «إني... إني آسفة.»

فتابع يقول: «اننا في حالة حرب، يا آنسة وارين، والخطر موجود في كل بقعة تقوم عليها الحرب، ولهذا السبب يتحتم على النساء ان يبقين بعيداً.»

فقالت تحاول ان تعلل تصرفها: «ولكن الأطفال كانوا... يبكون.»

فقال: «وهذا أيضاً شيء يؤسف له. والمرأة الموكلة بالاطفال ستوبخ بعنف. ولاراحة نفسك فقد وجدت امرأة

أخرى اكثر شعوراً بالمسؤولية وذلك لرعايتهم اثناء الليل، وآمل ان يأتي اهاليهم في الصباح لطلبهم.»

فقالت: «إنني مسرورة... لهذا.»

فقال: «أظن عليك ان ترتاحي. فقد عانيت من تجربة سيئة. وكلما اسرعت بالنوم، كان ذلك افضل.»

فقالت: «أردت أن اتحدث... إليك.»

فأجاب الجنرال: «وأنا أيضاً لدي شيء معين أريد أن احدثك عنه.»

وعندما جلست، جلس هو على كرسي أمامها. وبدا لها أنه يجلس بهدوء تام رغم الأحداث غير العادية التي مرت عليهما، هما الاثنين.

ابتدأ بعد لحظة، يقول: «سيريحك ان تعلمي، يا آنسة وارين، ان ابنة خالك اللايدي كاترين والملك قد وصلا إلى اليونان سالمين.»

«لقد كنت اعلم انهما سيذهبان إلى هناك.»

«لقد صدقتك عندما قلت لي انك لم تكوني تعلمين.»

«هذا فقط كان مجرد تخمين مني، فمن غير المعقول ان يأتمنوني على اسرارهم.»

«لا استطيع ان افهم السبب في عدم اخذهم لك معهم. وبعد، فخالك كان معدوداً من حزبهم، ولا اظنه كان من الصعب عليهم ان يأخذوا معهم شخصاً آخر.»

فأجابت: «اظن خالي لم يفكر سوى في وصول ابنته سالمة.»

«ولكنك ابنة اخته!»

فقالت دون تفكير: «ولكنه غير... فخور بي.» وعندما

رفع حاجبيه مستفهماً، ادركت ما في جوابها هذا من عدم لباقة. وشعرت بانه ينتظر جوابها، فقالت بعد لحظة: «إنني القريبة الفقيرة. واظن حتى في كافونيا تعرفون ما يعني هذا، ومثل هذا القريب من السهل الاستغناء عنه.»

كانت تتكلم دون مرارة بل بلهجة هازلة تقريباً، وبعد لحظة قال الجنرال: «لا أكاد اصدق هذا، وأؤكد لك أن قليلاً جداً من الكافونيين من يتخلون عن اقربائهم في ظروف كهذه.»

فلم تجد ثيولا ما تقوله، وبعد لحظة صمت، قال الجنرال: «لدي هنا شيء لك.»

فنظرت إليه بدهشة بينما كان هو يخرج من جيبه شيئاً ناولها إياه.

وعندما انحنت إلى الأمام لتأخذه منه، رأت أنه الجنيه الذهبي الذي كانت قد تركته للطفلة المصابة.

وقال: «لقد كنت انوي رده إليك عندما تقابلنا لأقول لك اننا، نحن الكافونيين، لا نحتاج إلى صدقة منك. ولكنني اظن انه لم يعد بإمكانك الآن ان تقدمي مثل هذه الهبة السخية.»

فنظرت ثيولا إلى الجنيه الذهبي في راحتها، ثم قالت: «إنه هدية من أبي. وهو يمثل ثلث ما أملكه في هذا العالم.»

«ومع هذا اعطتيه لتلك الطفلة. ولماذا اهتممت بها عندما صدمتها العربة؟»

فترددت ثيولا لحظة ثم قالت: «لأن أبي كان يحب اليونان، ولأن حضوري إلى كافونيا كان أهم حدث في

www.rewity.com

حياتي.» وبدت في صوتها رجفة بسيطة وهي تتابع قائلة: «لقد افزعتني التناقضات التي رأيتها هنا، مثل البذخ المفرط في القصر الملكي، والفقر المدقع خارجه. لقد سمعت بالمعاملة السيئة التي عومل بها شعبك، فأنا احب ان اساعدهم.»

فقال: «كما كنت تساعدين الاطفال هذه الليلة عندما كانوا يبكون خائفين.»

«كيف حال الفتاة الصغيرة التي كانت صدمتها عربتنا؟»

«لقد عالجها الطبيب وساقها في سبيل الشفاء.»

«إني مسرورة لذلك، فقد علمت انه لا يوجد لديكم مستشفى.»

فأجاب: «لقد كان لدينا من قبل مستشفى، ولكنه هدم عندما أراد الملك ان يزيد من مساحة حدائق القصر.»

فشهقت ثيولا، ثم قالت: «وهل ستبني غيره؟»

«نعم، إذا كنت في وضع يسمح بذلك.»

فنظرت إليه بخوف، وسألته: «أتظن ان الملك قد يستعيد... مكانه؟»

فأجاب: «إني واثق من ان أولئك الذين يساندونه لن يكفوا عن ذلك دون قتال. وقد لا يتمكنون من هزيمتنا، ولكن علينا أن نكون مستعدين.»

فقالت: «نعم، بالطبع، ثم هل يمكنني المساعدة؟»

فقال: «عليّ ان افكر في ذلك، يا آنسة وارين. فأنت تعلمين أنه يجب علينا حمايتك.»

نهض الجنرال وهو يقول: «في أوقات الحرب، المرأة معرضة إلى كل الاحتمالات.»

ففاجأها هذا الإطراء كلياً ما جعلها تنظر إليه بعينين متسعتين. ثم وقبل ان تتمكن من الجواب، وقبل ان تتمكن من الوقوف، استدار ليغادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه.

وقفت تحدق في أثره، ومازال الجنيه الذهبي الذي كانت منحته للطفلة مازال في يدها.

وأخذت تردد لنفسها قوله ذاك: (المرأة معرضة لكل الاحتمالات)

www.rewity.com

الفصل الرابع

وفي الصباح، بدأ الاكتئاب على ماغارا، فسألتها ثيولا: «ما بك؟ هل حدث شيء لا تريدين إخباري به؟»

فأجابت المرأة: «إننا قلقون نوعاً ما، يا آنسة، فهناك شائعات تقول بأن جنود الملك ينوون مهاجمة المدينة. ولكنك تعرفين كلام الناس.»

سألتها ثيولا بسرعة: «ألم يقل الجنرال شيئاً؟»

«لم يقل شيئاً، يا آنسة. وهذا ما يجعلني أظن أن الناس يقولون ذلك لشدة خوفهم.»

وسكتت قليلاً، ثم عادت تقول: «هناك كثيرون في المدينة يقولون إن اللايدي كاترين كانت هي الاميرة القادمة من وراء البحار والتي كانت ستجلب معها السلام والازدهار.»

فسألتها ثيولا: «أتعنين ما كان قال لهم رئيس وزرائهم؟»

فأجابت: «نعم. هذا ما كان قيل لنا.»

ارتدت ثيولا ملابسها، ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس وهي تتساءل عما إذا كان الجنرال يدرك صعوبة أن يكون المرء سجين منزل بينما الشمس في الخارج دافئة والزهور رائعة الجمال.

تاقت إلى التجوال في الحديقة، لأن تشعر بالتحرر في جو السلطة الذي يسود جناح الملكة ووجوه آل

هابسبورغ الذين كانت واثقة من أنهم ينظرون إليها بعدم رضا.

ولا بد أن الوقت كان قرابة الظهر، عندما سمعت نقراً على بابها، وإذ ظنت أن ماغارا آتية بصينية الغداء، أجابت قائلة دون أن تدير رأسها: «ادخلي.»

وشعرت بشخص يدخل، وعندما لم تسمع صوت ماغارا تتكلم، نظرت حولها فتملكتها الدهشة وهي ترى أنه الجنرال.

قال بعد لحظة: «أحب أن أتحدث إليك، يا آنسة وارين.»

قال ذلك بصوت رصين جاد جعلها تتوجس خفية مما سيقول.

ساد صمت شعرت ثيولا منه أنه كان يختار كلماته بعناية، ثم قال: «إني أعرض عليك أمراً، يا آنسة وارين، قد تجدينه غاية في الغرابة. ولكن هل تصدقين إذا أنا قلت انني أقدمه بحسن نية تامة وإخلاص في ماسأشرحه لك؟»

«طبعاً.»

ورفعت بصرها إلى وجهه، ولم تفهم التعبير الذي بدا في عينيه وهو ينظر إليها.

وابتدأ يقول: «الوضع هو أن قوات الملك بأمرة الضباط النمساويين ينوون مهاجمة العاصمة زانتوس.»

فسألته: «وهل عددهم يكفي لذلك؟»

أجابها: «إن الجيش الشعبي أكبر عدداً، ولكننا بحاجة ماسة إلى السلاح. إن بنادقنا قديمة الطراز كما أننا لا نملك أسلحة ثقيلة.»

www.rewity.com

وانزعج وهو يتابع قائلاً: «هذا بينما جيش الملك مجهز بأحدث المعدات.»

فشبكت ثيولا يديها ببعضهما دون أن تتكلم، بينما تابع الجنرال قائلاً: «وإذ أعلم جيداً ما سيقومون به من دمار، فأنا لا أستطيع أن أسمح لهم بالقتال في شوارع زانتوس وما سينتج عن ذلك من موت الكثير من المدنيين وخاصة النساء والأطفال.»

فسألته: «وماذا بإمكانك أن تصنع إذن؟»

فأجاب: «إنني أنوي أن أعترض سبيل قوات الملك قبل أن يصلوا إلى المدينة. وهذا يعني، إذا كنا سنفاجئهم، أن جيشنا يجب أن يغادر في هذه اللحظة.»

فسألته: «ولكن أليس من الجنون أن تواجههم في الجبال؟»

فقال الجنرال بابتسامة باهتة: «لقد سبق وفكرت في هذا، يا آنسة وارين. ولحسن الحظ، هناك عدد كبير من القرى الجبلية حول الطريق الوحيدة بيننا وبين اليونان.»

«هل تعني أنكم ستكمنون لهم؟»

فأجاب: «هذا ما أرجو أن أتمكن من القيام به. وهو بصراحة، الخيار الوحيد الذي أمامنا.»

وسكت لحظة، ثم تابع قائلاً: «لقد كنت صريحاً معك، يا آنسة وارين، إذ اكشف لك عن خططنا والتي يجب أن تبقى طبعاً في سرية تامة. عليك ألاّ تتحدثي عنها حتى إلى خادمتك.»

فقالت بسرعة: «لن ادعك أبداً تفقد ثقتك بي.»

فقال: «لقد وثقت بك كما لم أثق بأي شخص آخر وذلك لأن ما أنوي القيام به يعنيك أنت بشكل مباشر.»

فهتفت تقول: «يعنيني أنا؟»

«إن ما يصعب عليّ، يا آنسة وارين، هو أن أعرف ما عليّ أن أفعله بك.»

ثم حول نظراته عنها وهو يتابع قائلاً: «إن ما حدث الليلة الماضية هو شيء يؤسف له للغاية، ولكنه شيء يحدث باستمرار، كما لا بد تعلمين، حين نكون في حالة حرب.»

فشعرت ثيولا بالرعب وهي تتصور ما انتابها من رعب وهلع وهي ترى ذلك الجندي المتهور يقترب منها. وكيف أنقذها الجنرال منه بقتله.

وتابع الجنرال يقول: «إن الرجل الذي هاجمك كان من أصل الباني، والالبانيون، خصوصاً أولئك الذين يعيشون في الجبال، هم صنف عصبي ومتهور الطبع.»

فسألته بصوت خافت: «وهل هناك كثيرون مثله في جيشك؟»

فأجاب الجنرال: «إنني أشكر حظي لكل من يتبعني من الرجال... مهما كان حالهم ومهما كان عدم تحضرهم.»

«يمكنني أن... أتفهم ذلك.»

فقال: «إذن، فبإمكانك أن تدركي مبلغ الصعوبة التي تواجهني في اختيار الحرس الملائم لك هنا، وأنا لا أريد أن أخيفك في أن أحدثك عما يمكن أن يقوم به جنود الملك المرتزقة إذا نحن هزمنا في النهاية.»

لم يكن ثمة حاجة به إلى الاسهاب في ما يقول. فلطالما

قرأت عن أعمال السلب والنهب وانتهاك الخصوصيات وبقية الاعمال المشينة التي كان يقوم بها جيش نابوليون في البرتغال والبلاد الاخرى من أوروبا التي غزاها الفرنسيون.

وشعرت ثيولا بنفسها ترتجف وهي تقول: «أرجوك... ضعني في مكان... آمن.»

فأجابها: «ذلك ما أريد أن أقوم به. ولكن هنالك طريقة واحدة مؤكدة تمنع أي رجل من الجيش الكافوني من اعتراض طريقك.»

«وما هي تلك؟»

«هي في أن تنتمي إليّ.»

كان الجنرال يتكلم بالانكليزية، ولكن ثيولا اندهشت وكأنها تشعر بأنه لا يمكن أن يعني حقاً ما يقوله.

لكنه أضاف يقول بسرعة وكأنه خشي من أن تسيء فهم ما يقول: «إنني أقترح، يا آنسة وارين، أن نعقد زواجاً صورياً. وبصفتك زوجتي، ستكونين في أمان، تماماً كما أسير أنا آمناً في شوارع المدينة، واثقاً من أنه لن يغدر بي أحد.»

فتمتمت بصوت خافت: «زوجتك...؟»

فقال: «بالاسم فقط. إنه سيكون زواجاً صورياً بحيث يمكنني، فسخه تبعاً للقانون الكافوني، وذلك حالما يستتب السلام.»

وسكت لحظة، ثم تابع يقول: «ويمكنك عند ذاك أن تعودي إلى بلادك، يا آنسة وارين، وهذا أفضل لك من أن تكوني زوجة رجل ثائر متمرد.»

ثم أخذ يتمشى في الغرفة وهو يقول: «إن المسألة مسألة وقت، فلو كان لدينا المزيد من الوقت، لأمكنني القيام بترتيب آخر، ولكنه الآن الحل الوحيد الذي يمكنني تقديمه رغم ما في ذلك من حرج لك.»

فقالت وقد تملكها الجمود: «أظن... يا جنرال، أن لديك سبباً آخر... يدفعك إلى أن تطلب مني أن أكون زوجتك.»

فتوقف الجنرال عن السير، ونظر إليها بحدة: «هل لديك ميزة الجلاء البصري، يا آنسة وارين، أم أنك سبق وسمعت شيئاً؟»

فأجابت: «لقد أخبرتني ماغارا بأن القلق يتملك الناس لأنهم يعتقدون بأن الاميرة التي ستأتيهم، كما اخبرهم رئيس الوزراء، من وراء البحار، هي كاترين وأن وجودها سيجلب لهم الرفاهية والسلام.»

فقال الجنرال: «لقد كان رئيس الوزراء بالغ الدهاء في كلامه. إن كل تاريخنا هو مؤسس يا آنسة وارين، على الخرافات والاساطير.»

فقالت ثيولا: «إنني لست أميرة.» وتذكرت أن كاترين قد سبق وقالت نفس الشيء.

أجاب الجنرال: «إن رئيس الوزراء حرّف الاصل اليوناني ليناسب غرضه.»

وخيل إليها في هذه اللحظة وكأن أباها يكلمها ويخبرها بما عليها أن تفعل، ويساعدها لأنه يتفهم أكثر من أي شخص آخر، مقدار حاجة الكافونيين إلى ذلك.

فقالت بعد أن سحبت نفساً عميقاً: «إنني سأفعل... ما تريد، يا جنرال، ولكن... بشرط واحد.»

فسألها: «وما هو؟»

«هو أن أرافقكم عندما تغادرون المدينة.»

رأت الدهشة على وجهه، وإذ خيل إليها أنه موشك على الرفض، سارعت تقول: «لاأستطيع احتمال البقاء هنا وحدي، متسائلة عما يحدث، محاولة التهكن بمن عسى أن ينتصر جيشك أم جيش الملك.»

وبعد لحظة، قال الجنرال: «إنني أقبل هذا الشرط. وسأتدبر أن يكون الزواج بين أفراد الشعب. إن هذا سيسر الناس، ويثقون باليمن والبشائر التي تحملينها إلى بلادنا.»

«أرجو أن أتمكن من... ذلك.»

فقال: «أرى أن الرجال تزداد شجاعتهم في القتال إذا كانت قلوبهم عامرة بالاطمئنان أكثر مما هي عامرة بالطمع.»

فقالت بسرعة: «وهذا ما عليك أن توفره لهم.»

فقال: «وهذا ما أنويه، بمساعدتك لي.»

نهضت ثيولا وهي تقول: «إني أريد أن أساعدك.»

لم يجب، وإنما نظر إليها.

ثم قال فجأة: «دعيني أكرر، يا آنسة وارين، أن بإمكانك الثقة بي. فزواجنا لن يعدو أن يكون صورياً، وأنا أشكرك من أعماق قلبي لتفهمك مبلغ ضرورته.»

وعندما انتهى من حديثه، اتجه نحو الباب مغادراً الغرفة دون أن ينظر خلفه. عند ذلك فقط رفعت ثيولا يديها إلى وجهها وهي ترتجف.

لقد بدا كل شيء أمامها بعيداً عن التصديق، أو لعله جزء من حلم! ومع ذلك فقد كانت تعلم أن كل ما قاله الجنرال كان مبنياً على المنطق.

كانت قد رأت الجموع يحملون صور كاترين، فاستغربت، في ذلك الحين، مبلغ ما يعنيه ذلك لهم.

ذلك أنها كانت فطنة بالغة من رئيس الوزراء أن يضمن نجاح زفاف الملك شعبياً، وذلك بربط عروسه بقصة قديمة صدقها كل كافوني كما رأت ثيولا.

ورغم أنهم كانوا على استعداد لاتّباع أليكسيوس فازيلاس حيثما يقودهم، فلا بد أن يكون هناك دوماً البعض، خصوصاً من النساء، ممن سيتساءلون عما إذا كانت آمالهم بالسلام والسعادة قد ذهبت مع كاترين.

وحدثت نفسها قائلة: يجب أن يرتاحوا لي يجب أن يكونوا واثقين من أنني سأحاول مساعدتهم قدر استطاعتي.

وفكرت ثيولا بأنهم سيجدون تحت حكم الجنرال فازيلاس كل السعادة والأمان.

ولكنها ارتجفت وهي تتذكر أن جيش الملك كان مسلحاً بالمدافع والبنادق الحديثة.

وكانت ما تزال واقفة في غرفة الجلوس، تفكر فيما حدث، عندما فتح الباب وظهرت منه ماغارا راكضة نحوها، وهي تهتف قائلة: «أصحيح هذا، يا آنسة؟ هل صحيح أنك ستتزوجين الجنرال هذا المساء؟»

فأجابت ثيولا: «نعم، هذا صحيح.»

«لا أستطيع تصديق ذلك، يا آنسة، ولكنها أخبار رائعة. أنها ما أتمناه لك بالضبط.»

فسألتها ثيولا: «وكيف علمت بذلك؟»

فأجابت: «لقد أخبرني الجنرال نفسه بذلك، وأظنه الآن قد ذهب إلى الساحة ليخبر الناس. إن هذا سيسعدهم جداً. إنهم يحبون حفلات الاعراس، وقد ابتدأت بعض النساء يشكين من حرمانهم من التفرج على عرس الملك الذي ألغي.»

قالت ثيولا: «ماغارا، ليس لدي ما ألبس.»

فردت ماغارا قولها بدهشة: «ليس لديك ما تلبسيه؟ ولكن الخزانة مليئة بالثياب، وهناك ثوب زفاف بالغ الجمال.»

فهتفت ثيولا: «آه، بالطبع ثياب كاترين.»

كانت قد نسيت حقاً أن ثياب كاترين ما زالت هناك، ولم يخطر لها قط أن بإمكانها أن ترتديها.

وقالت متشككة: «أظنها بقياسي.»

كانت تتكلم وهي تتساءل عما عسى أن تقوله زوجة خالها إذا هي علمت بأنها ترتدي ثوب زفاف ابنتها لتزف إلى أحد الثوار.

وتذكرت كذلك كلمات خالها عندما قال لها بأنه لن يمنحها إذناً منه لكي تتزوج وأن عليها الا تهتم برجل أو تسمح لرجل بالاهتمام بها.

ولكنها فكرت في أن الامر الآن هو مختلف. فالجنرال غير مهتم بها كامرأة، وإنما فقط لأنها تساعد على زرع الاطمئنان والثقة بين افراد جيشه، ما يجعلهم يحاربون بشجاعة وبسالة.

وفكرت في قوله بأن من السهل ابطال الزواج إذا هو

انتصر في الحرب. ولكنها ما لبثت أن أقنعت نفسها بعدم الاهتمام بمثل هذه التفاصيل حالياً.

قالت: «دعينا ننظر إلى ثوب الزفاف، يا ماغارا.»

ودخلتا إلى غرفة النوم حيث أخرجت ماغارا ثوب الزفاف من الخزانة.

كان بالغ الروعة بتطريزه وزينته.

قالت ماغارا: «أرى أنه واسع عليك عند الخصر، يا آنسة. ولكن بإمكاني تغييره بسهولة.»

كان في الحقيقة، أحد أجمل الأثواب التي رأتها ثيولا في حياتها، وكانت تعلم كما كانت والدة كاترين قد قالت، بأنه كلف مبلغاً باهظاً.

كان مصنوعاً من قماش الكريب الابيض اللون، وقد زينت تنورته من الامام بالتول الذي جمع إلى الخلف لينزل بعد ذلك كالشلال مشكلاً ذيلاً للثوب. كما كان على قفا الثوب من أسفل عقدة عريضة من قماش الساتان، وكذلك أحاط التول بأعلى ياقة الثوب.

وتبعاً لتعليمات كاترين، كانت الخائطة قد أضافت إليه ياقات من الساتان مطرزة بالماس.

وقد أسبغ ذلك على الثوب لمعاناً وترفاً بالغين، ولكن ثيولا، وهي تنظر إليه، شعرت بأنه غير ملائم لشخصيتها.

فقالت: «سأكون شاكرة لك جداً، يا ماغارا، إذا أنت أزلت من الثوب هذا كل الازهار والشرائط.»

فاعترضت المرأة قائلة: «ولكنها جميلة جداً، يا آنسة.»

فقال ثيولا بحزم: «إنها بالغة التكلف.»

فقالت ماغارا: «سأفعل ما تريدين، ولكن هذا أمر مؤسف.»

فلم تنصت ثيولا إليها، فقد كانت تخرج من أحد الأدراج النقاب الشفاف الثقيل الذي كانت كاترين قد أحضرته معها لتضعه يوم عرسها.

وكان من المفروض تثبيته في مكانه باكليل من الماس كانت زوجة خالها قد أعارته لابنتها في آخر لحظة.

ولكن كاترين لم تأخذه معها، ولا بد أنها، قد نسيته. ولكن ثيولا، على كل حال، كانت تعلم أنه لن يلائمها حيث أنه ثمين جداً وثقيل الوزن.

وكذلك لم يعجبها النقاب الشفاف، رغم جمال تخاريجه، إذ شعرت بأنه بالغ الفخامة. فقالت للمرأة: «لدي فكرة، يا ماغارا.»

ثم جذبت الدرج الذي عند أسفل الخزانة.

كانت والدة كاترين، والتي كانت تحب الاقتصاد، قد وضعت ضمن أمتعة كاترين عدة لفائف من القماش الذي يمكنها به أن تصلح الثوب إذا أصابه تلف.

وكانت قد قالت لها: «عليك يا ثيولا، إذا تمزق ذيل أحد أثواب كاترين أو توسخت، أن تخيطي ذيلاً جديداً عدة مرات، وذلك قبل إهتراء الثوب.»

«نعم، يا زوجة خالي.»

فقالت زوجة خالها بحدة: «يمكنك أن تخيطي جيداً إذا أنت رغبت في ذلك. وأنا سأوصي كاترين بأن تنتبه إلى أنك ستقومين بهذه المهمة حالما تدعو الحاجة إليها.»

ثم أرتها لفائف القماش وهي تعيد عليها تعليماتها عدة

مرات بمبلغ الدقة والعناية التي ستتوخاها في القيام بذلك.

وهكذا أخرجت ثيولا من الدرج لفافة من التول ووضعتها على الفراش بجانب الثوب.

وعندما ارتدت ثوب الزفاف، والذي كانت ماغارا قد حولته لها، لم تكد تعرف نفسها في المرآة.

ان الثوب قد جعلها، بعد رفع الأزهار والشرائط والزينات غير الضرورية منه، قد جعلها تبدو صغيرة بالغة البراءة والنقاء.

وبدلاً من النقاب الثقيل، علّمت ماغارا كيف تصنع نقاباً آخر من التول ثم تثبته باكليل بسيط من زهور البرتقال التي كانت ثيولا قد أزالت منها الحبوب الماسية.

وقالت ماغارا مأخوذة وذلك عندما أتمت ثيولا ارتداء الثوب: «لشدّ ما تبدين رائعة الجمال.»

عندما أخبروها بأن الجنرال ينتظرها، سارت ببطء في الممر الطويل وهي تسمع، للمرة الأولى في حياتها، حفيف ذيل الثوب الحريري المنسحب خلفها.

وصلت إلى السلم الرئيسي، وعندما وضعت يدها على الدرابزين رأت الجنرال ينتظرها في أسفل الردهة.

كان يرتدي البزة العسكرية الخضراء للجيش الكافوني، ولكن سترته الآن كانت مزينة بالشرائط الذهبية، والشريطة الحمراء معلقة على جانبه.

وأخذ يتابع ثيولا بنظره أثناء هبوطها السلم.

وعندما وصلت إليه، ونظرت إلى عينيه، رأت فيهما ما كانت ترجوه من تعبير، والذي كان مختلفاً جداً عن ذلك الاحتقار الذي كان قد نظر إليها به ذات مرة.

www.rewity.com

قال: «إنك تبدين كما توقعتك أن تكوني بالضبط.»

كانت تحمل بيدها باقة صغيرة من الورود البيضاء كانت ماغارا قد ناولتها لها في آخر لحظة.

ورأت ثيولا عربة مفتوحة تنتظرهما أمام باب القصر. وكانت مزينة بالازهار كما كانت تحيط برقاب الجياد التي تجرها عقود الازهار، وكذلك حول لجمها.

سارت بهما العربة ببطء في الطريق الواسع الطويل الذي يقود إلى الساحة.

وعندما وصلا إليها، رأتها ثيولا محتشدة بالجموع كما كان الامر حين وصول كاترين، ولكن ثمة شيء مختلف الآن.

لم تستطع تفسير ذلك الاختلاف، في البداية. فقد كانت الهتافات الآن تتصاعد من القلب، وكانت الابتسامات تعلو الوجوه.

نزلت من العربة ورأت في وسط الساحة منصة كان عليها محافظ المدينة مرتدياً عباءة حمراء.

كانت تفصل العربة عن منصة مسافة قصيرة فرشت بسجادة حمراء، وما أن قدم الجنرال مع ثيولا، حتى صفّق الناس الذين كانوا يحفون بهما على الجانبين، بسعادة وقوة.

ومضت لحظة لم تكد ثيولا تصدق ما يحدث. وما لبثت أن أدركت الفرق بين هتافات الفرح التي تسمعها الآن، وبين تلك الهتافات التي كانت لدى وصول كاترين. لقد كانت الاصوات الآن تحمل احتراماً لم يكن هناك من قبل.

وصلا إلى المنصة، ولأول مرة، منذ تركا القصر، تشعر ثيولا بالخوف والرهبة.

كان من الفطنة بحيث أدرك ما تشعر به، لأنه التفت إليها وهو يقول: «إنك تمنحين شعبي الامل والأمان.»

وكان صوته من الخفوت بحيث لم يسمعه سواها.

ولم يكن ثمة أجدر من هذه الكلمات بمحو خوفها هذا، لأنها لم تعد الآن تفكر في نفسها بل بالشعب.

وقفا أمام محافظ المدينة فحياهما بخطبة قصيرة باللغة الكافونية، مخبراً الجنرال بمشاعر الشعب نحوه وتطلعهم إليه قائداً ومحرراً، كما كانت أسرته لمئات السنين، وكيف أن قلوب الجميع معه الآن في أسعد يوم في حياته هذا.

وطيلة الوقت الذي استغرقه خطابه، ران على ذلك الحشد الضخم من الناس صمت عميق.

قال المحافظ لأليكسيوس فازيلاس: «نريد توقيعك، يا جنرال.»

فقال الجنرال: «كنت أظننا سننتهي الأمر أمامك يا حضرة المحافظ.»

فأجاب المحافظ: «إن لدي خبراً رائعاً لك. عندما أعلنت أنا هذا الصباح بأنني سأزوجكما. جاءت رسالة تقول بأن رجل الدين قد عاد إلى المدينة. إنكما ستتزوجان رسمياً، كما أظنك ترغب. ورجل الدين في انتظارك الآن.»

وشعرت ثيولا بأن اليكسيوس فازيلاس قد استحال إلى حجر، بينما هي نفسها وجدت التنفس صعباً عليها.

ثم وبحركة، بطيئة، وضع الجنرال توقيعه في سجل الزواج الصوري، كما أضافت ثيولا توقيعها بأصابع جامدة.

واستدار المحافظ نحو الجموع الصامتة، وقال: «أولادي، إن أليكسيوس فازيلاس الذي عاد ليحكمنا، والذي تزوج الآن تبعاً لقانون كافونيا، سيعود فيتزوج رسمياً، والعريس وعروسه سيتوجهان الآن إلى حيث رجل الدين يقوم بإتمام المراسيم.»

وتصاعدت هتافات الابتهاج التي كادت تبلغ اراض بعيدة.

وإذ بثيولا الواقفة امام الجنرال، تجد نفسها متجهة نحو الجهة الثانية من المنصة سائرة على السجادة التي كانت ممتدة إلى عتبة المبنى الذي يتواجد فيه رجل الدين، إلى الطرف الآخر من الساحة.

أثناء سيرهما، والناس واقفة على الجانبين، قال الجنرال: «أرجو منك المعذرة، فليست هذه خطتي التي وضعت، ولكن ليس بإمكاني التصرف حالياً.»

فقالت: «ليس بإمكانك ذلك طبعاً.»

سارا ببطء ووقار بين الجموع المهللة الهاتفة إلى أن وصلا إلى المبنى حيث كان بانتظارهما مجموعة من رجال الدين.

وعندما ناولت باقة الورود إلى أولئك الذين كانوا يؤدون الهتافات، خلعت كذلك قفازيها.

كانت مراسيم الزواج رائعة، وجعلتها اللغة اليونانية التي كانوا يتكلمون بها، تفكر في أبيها، متشوقة إلى حضوره.

وضع الجنرال خاتم الزواج في اصبعها ثم عادا يسيران في الممر الذي كانت أشعة الشمس تتدفق إليه من خلال الباب الغربي.

انطلقا بالعربة واخذت الزهور تنهال عليهما. وعندما وصلا إلى فناء القصر الملكي، كان هناك هدوء نسبي، ولأول مرة منذ زواجهما أدارت ثيولا وجهها إلى الجنرال.

رأته ينظر إليها وفي عينيه معنى لم تستطع تفسيره ثم قال بصوت عميق: «أقسم لك بأنه لم يكن لدي فكرة عن أن رجل الدين سيعود إلى زانتوس ليعقد زواجنا.»

وكانا قد وصلا إلى درجات القصر قبل أن تستطيع ثيولا اجابته.

كان المستخدمون متجمعين، وقد بدوا مختلفين جداً عن أولئك الضيوف المتأنقين الذين كانوا في انتظار كاترين، ولكن لم يكن المشاهد ليخفى عليه الاخلاص الذي بدا في تهانيهم التي كانت تخرج من أعماق قلوبهم.

وكان الجنرال يجيبهم: «شكراً، شكراً.»

واقبلت عدة نساء ليمسكن يد ثيولا وهي تصعد الدرجات، وأخريات كن يرفعن ذيل ثوبها.

وعندما وصلا إلى الردهة، استدار الجنرال إليها قائلاً: «أعلم أنك تدركين ما أمامي من مشاغل جمة علي القيام بها قبل مغادرتنا المدينة. هل ستكونين مستعدة الساعة الثامنة؟ وإلى أن يحين ذلك الوقت، أرى أن تأخذي قسطاً من الراحة.»

فأجابت: «نعم، بالطبع.»

غادر بعد لحظة فتابعت هي صعود الدرج بمفردها وليس بجانبها سوى ماغارا.

* * *

www.relvity.com

عندما غادرا المدينة، لم يكن الظلام قد أرخى سدوله بعد، ولكن الشمس كانت تتوارى خلف شفق قرمزي وذهبي خلف الجبال.

وبكت بعض النساء وهن يودعن أزواجهن وأبناءهن.

ولم يتحرك الجنود بشكل صفوف منتظمة، كما كان النمساويون يفعلون، وإنما كانوا يتحدثون مع بعضهم البعض دون كلفة.

كان الجنرال على صهوة حصانه وثيولا بجانبه وكذلك عدد من الضباط الفرسان. ولكن الغالبية كانوا يسيرون على أقدامهم مع جنودهم ويتبادلون معهم الاحاديث على قدم المساواة.

وفكرت ثيولا في مبلغ التناقض بينهم وبين الضباط النمساويين الاقرب إلى الوقاحة والانعزالية.

كانت ترتدي ثوب ركوب من أثواب كاترين إذ كان ثوبها عتيقاً مهترئاً، ما يجعلها تشعر بالخزي به أمام الناس.

ولكنها كانت تعلم أنها إذا أرادت أن تكون مثالاً ليس للشعب بل للجيش أيضاً، فعليها أن تؤدي دورها كما يجب.

لاحظت أنها عند ظهورها، كان الجنود ينظرون إليها باعجاب ولكن بمزيج من الاحترام، وأدركت أن مظهرها كان حسب ما يرغبون.

لم تكن واثقة من شعور الجنرال، إذ لم يجد وقتاً يتحدث فيه إليها، وكان مشغولاً باعطاء الاوامر والتعليمات حتى آخر لحظة.

علمت أن المدينة قد أخذت تمتلىء بالناس، كما أخذ السكان يزدادون ساعة بعد أخرى، وعندما رحلا، كانت الساحة التي تزوجا فيها قد امتلأت بقطعان الاغنام والبقر والماعز.

وساور ثيولا شعور بأن الجنرال كان محرجاً نوعاً ما بالنسبة لما حدث وكان ما يزال لا يدري كيف يتصرف في هذا الامر.

وسألت نفسها، كيف يمكننا أن نتحرر من زواجنا في ظروف كهذه؟

وتساءلت عما إذا كان هذا الامر يقلقه في هذه اللحظة التي يجب ألاّ يفكر فيها بسوى القتال الذي أمامهم ضد قوات الملك.

أرخى الظلام سدوله بسرعة حالما غابت الشمس، ولكن القمر في السماء كان في منتصفه وسرعان ما أخذت النجوم تتألق فوق أعالي الجبال.

أخذت برودة الجو في الازدياد، فسرّت ثيولا وهي تلتف بالعباءة المبطنة بجلد الغنم التي أصرت ماغارا عليها بأن تضعها على سرج جوادها لتكون جاهزة عند الحاجة إليها.

وعندما توقفوا عند سفح الجبال، تقدم ضابط نحوها ليحل العباءة من سرج جوادها.

وبينما كان يقوم بهذا، تملكها السرور والدهشة إذ عرفت فيه الكابتن بيتلوس.

فهتفت به: «إنك معنا؟ ما أشد سروري بذلك.»

فأجاب باسماً: «وهل يمكنني أن أكون في أي مكان آخر؟»

www.rewity.com

«لقد كنت أتحين فرصة أتحدث فيها إليك منذ وجودي في زانتوس.»

«كنت مشغولاً جداً بالعمل لأجل الجنرال.»

فسألته: «وهل كنت على اتصال به طوال وجودك في القصر؟»

فأجاب: «لقد أقنعني أليكسيوس فازيلاس بأن بإمكاني خدمته بشكل أفضل بوجودي هناك.»

فقالت: «هذا صحيح.»

ناولها العباءة لتضعها على كتفيها، وعندما انتهى من ذلك أقبل إليه جندي وقال: «إن الجنرال يريد أن يتحدث إليك، يا حضرة الميجور.»

فهتفت ثيولا: «ميجور؟»

فقال لها: «نعم، فقد ترقيت. وأحب أن أخبرك بأنني أعتبر هذا استحقاقاً لي لما تحملته طوال السنوات الاخيرة.»

وابتسم بعد أن قال ذلك ثم تركها مبتعداً بينما جلست هي تنتظر الامر بمتابعة الرحيل.

وبعد ساعة من السير، وجدت ثيولا نفسها في كهف يقع في منتصف الطريق إلى قمة الجبل.

كانت تفوح في ذلك الكهف رائحة خفيفة لحيوان بري، ولكنه كان نظيفاً وقد فرشت أرضه بالرمال.

وأدركت أنه يمكنها أن تطل منها على الطريق أسفل، والذي يلتف خلال الوادي، وهو الوادي الذي لا بد أن يمر منه جيش الملك عند قدومه إلى زانتوس.

وعلى طول الطريق في الجبال تلك، كانت هناك كهوف

ومضائق وصخور حادة وفجوات عميقة، حيث يمكن للرجل أن يختبىء دون أن يشعر بوجوده أحد.

كان الكهف الذي وضعت فيه، واسعاً وقد كسا جندي أرضه ببطانية لكي تستطيع الجلوس عليها، كما وضع أخرى عند الجدار المقابل من الكهف.

فسألته ثيولا: «هل ذاك لأجل الجنرال؟»

فأجاب الجندي: «نعم، يا سيدتي.»

ثم وضع منظاراً مقرباً وعدة أشياء أخرى على تلك البطانية، ثم حيّاها وانصرف تاركاً ثيولا بمفردها.

جلست على البطانية تنتظر.

لم يكن الليل قد انتصف بعد، وكانت تعلم أن من غير الممكن أن تستطيع النوم وهي بهذا القدر من الخوف مما قد يأتي به الصباح.

كانت واثقة من أن الجنرال كان يستوثق من وجود رجاله في مواقعهم، في الناحية الاخرى من الوادي، ولم تتوقع حضوره إلى الكهف مطلقاً.

ولكن، حوالى الساعة الثانية، حين لم يعد القمر متوسطاً قبة السماء، إذا به يظهر فجأة.

سألها: «هل أنت بخير؟»

«كنت قلقة لأجلك.»

فقال وهو يجلس على البطانية: «لقد قمت بكل ما بإمكاني القيام به. كل رجالنا في مواقعهم. ومن الخطأ أن يتنقل الرجال هنا وهناك الآن، إذ قد يكون الاعداء قد أرسلوا كشافة لاستكشاف مواقعنا.»

فقالت: «هذا يبدو معقولاً.»

فقال: «لدي شيء لك.»

«ما هو؟»

«إنه مسدس. أظن عليك أن تكوني مسلحة. هل تحسنين الرماية؟»

فأجابت: «نعم. لقد كنت أستعمل مسدساً من النوع القديم كان أبي قد ورثه عن جده، وذلك على هدف في الحديقة.»

فقال: «أرجو ألاّ تضطري لاستعمال هذا، ولكن، إذا ساءت الامور، من الحكمة أن يكون لديك واحد.»

وناوله إلى ثيولا وهو يتكلم، فأخذته منه وهي تفكر بهدوء في أنه إذا ساءت الامور، حسب تعبيره، فقد تستعمل هذا المسدس لاطلاق النار على نفسها.

وقال الجنرال محذراً: «إنه محشو.»

فقالت: «سأكون حذرة جداً.»

ووضعته بجانبها على البطانية.

فقال: «أرى أن تنامي يا ثيولا. وهذا ما أنوي أنا أن أفعله. فغداً سيكون يوماً صعباً، دون شك.»

أجابت ثيولا: «نعم، لا بد لك من النوم. إن كل شيء يعتمد عليك، كما تعلم جيداً.»

فقال: «فكرت في هذا أثناء زواجنا اليوم.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «لا حاجة بي للقول كم كنت رائعة وكم كان من المهم، بالنسبة إلى الشعب، أن يصدق بأنك أقبلت لمساعدتهم في أخطر لحظة في حياتهم.»

فقالت: «أشكرك.»

قال: «تصبحين على خير، يا ثيولا.»

كانت تريد أن تطلب منه ألاّ ينام، وأن يستمر في الحديث معها. كان ثمة الكثير تريد معرفته، والكثير تريد سماعه، لكنها ما لبثت أن أدركت أن من المهم جداً بالنسبة إليه، أن يرتاح.

لقد كان يعمل طوال النهار، فإذا استطاع الآن أن ينام فترة قصيرة، فسيكون مستعداً لقيادة جيشه في هذه اللحظة التي صح قوله فيها بأنها أخطر لحظة في حياتهم.

وأخذت ثيولا تتمنى وترجو أن يكتب له النصر.

كانت تعلم أن الجنرال ينام الآن بسلام ودون أحلام.

انتبهت فجأة إلى حركة خافتة في الخارج.

ظنت أنها لا بد صادرة عن حيوان يتحرك بين الصخور، وساورها الخوف من أن تكون أفعى.

ولم تصدق عينيها حين رأت رأس رجل.

كان يتحرك تحت الكهف مباشرة، وحين نظرت إلى أسفل، أدركت أنه كان يتحرك ببطء شديد خلال بعض الصخور، صاعداً شيئاً فشيئاً ليصبح في مستوى باب الكهف.

خطر في بالها أنه قد يكون جندياً قد أحضر إلى الجنرال رسالة، ولا يريد أن يراه كشافة الاعداء.

وتساءلت عما إذا كان عليها أن توقظ الجنرال لكي تخبره بأن ثمة رجلاً يريده. وبينما كانت ما تزال مترددة في ذلك، إذ بالرجل يرفع نفسه إلى أعلى فترى في يده خنجراً طويلاً مرهفاً.

كان يلتمع في ضوء القمر، وعندما وقع بصرها عليه، أدركت أن هذا الرجل ليس موفداً بل مهاجماً غداراً.

www.rewity.com

وبحركة سريعة، مدت يدها إلى المسدس الذي كان الجنرال قد سلمها إياه.

ورفع الرجل نفسه مرة أخرى فأصبح عند فتحة الكهف، ما جعل ثيولا ترى الخنجر وقد رفعه بيده.

أطلقت النار، فتردد صدى الطلقة في أنحاء الكهف، وعندها هب الجنرال جالساً.

كان المهاجم يتهاوى إلى الخلف متدحرجاً ببطء ومعه عدد من الاحجار إلى جانب الجبل.

وسألها الجنرال: «ما الذي حدث؟ ولماذا أطلقت النار؟»

وإذا به يرى داخل الكهف، الخنجر وقد استقر على حافة الصخرة التي كان الرجل يتمسك بها.

ولم تكن ثيولا بحاجة إلى الايضاح وذلك الخنجر يلتمع بالشر في ضوء القمر.

نزل الجنرال إلى حيث كان الرجل ملقى إلى جانب الجبل.

وسمعت ثيولا الجنود يتحدثون إليه.

جلست ترتجف، ومع أن قتل الرجل لم يخلف في نفسها مشاعر الهلع التي كانت تتوقعها، فقد كان شعورها منفصلاً عن ذاتها بشكل ما وكأنه حدث خارج نفسها.

عاد الجنرال وعندما دخل الكهف، التقط مسدس ثيولا من حيث كانت ألقت به، ثم أخذ يعيد حشوه.

ثم قال بهدوء: «لقد أنقذت حياتي.»

فسألته: «من كان... ذلك... الرجل؟»

أجابها باختصار: «كان من جواسيس جيش الملك.»

سألته خائفة: «أتظن أنهم الآن يعلمون بمكانك؟»

فأجاب: «أشك في ذلك. أظن أن الرجل قد رآنا حين وصولنا. وبدلاً من أن يعود لاخبار قاعدته العسكرية، كما كان عليه أن يفعل، فكر في قتلي لكي يفوز بالجائزة التي كانت وضعت ثمناً لرأسي.»

فسألت: «إذن فما زال بإمكانك أن تفاجئهم.»

أجاب: «أرجو ذلك. ومرة أخرى، أشكرك.»

الفصل الخامس

كانت ثيولا تعلم أن الجنرال لم يكن نائماً.

لم يكن يتكلم وكان بالغ الهدوء، ومع هذا فقد كانت تشعر انه مستيقظ.

فكرت في أنه ربما كان ينصت ليرى ما إذا كان صوت الطلقة التي قتلت بها مهاجمه، قد نبهت قوات العدو.

لكنها ما لبثت ان أقنعت نفسها بأن صوت الطلقة ذاك لا يمكن أن يكون وصل الى مدى بعيد، وإذا كان هنالك جاسوس واحد، فليس هناك سبب للظن بأن أي شخص ما عدا جنودهم، قد سمعه.

ولكن كان بإمكانها ان تتفهم مدى انزعاج الجنرال وقلقه خوفاً من أن تفسد خطته. أرادت أن تتحدث إليه، أرادته ان يطمئنها إلى أنها قامت بالعمل الصواب.

لقد قتلت رجلاً. لم يكن بإمكانها القيام بغير هذا. وكانت واثقة من أن الجنرال كان على صواب حين قال إن الجاسوس لا بد رآهما حين وصولهما، فسعى إلى أن يفوز بالمكافأة التي كان الملك قد قدمها ثمناً للقبض عليه حياً أو ميتاً.

كانت ثيولا تعلم أنه لو كان نجح في قتل الجنرال، لفشلت الثورة، وعاد الملك ليعامل الشعب بقسوة أشدّ مما كان يعاملهم بها في الماضي.

الآن وقد علمت مقدار العنف الذي اتصف به حكم الملك

فرديناند، بدا من المستغرب أن يبقى على الحكم طوال تلك المدة.

ولكنه كان من الحكمة بحيث عرف كيف يحمي نفسه وأصدقاءه النمساويين بالأسلحة التي بامكانها أن تخمد أي تمرد حال ظهوره.

والرجال العزل من السلاح، مهما كانت نفوسهم ثائرة يصبحون عاجزين أمام الأسلحة الحربية الحديثة.

استطاعت ثيولا أن تدرك أن الأمر قد استغرق سنوات قبل أن يتأكد اليكسيوس فازيلوس من أنه أصبح في النهاية من القوة بحيث يستطيع ان يتحدى قوة النمساويين الهائلة.

أخذت تفكر في أنه لا بد هناك طريقة لفسخ هذا الزواج.

عند ذلك سألت نفسها: وماذا سيحدث لك؟

ولم تحتمل التفكير في البديل الوحيد الذي لا مناص منه لحياتها إذا هي تركت كافونيا، فحاولت أن تركز أفكارها على وضعهما الحالي.

واستدارت مرة أخرى تنظر إلى خارج الكهف حيث كانت الجبال تواجهها.

كان القمر يتألق على القمم المكسوة بالثلوج، ما جعل المشهد بالغ الجمال.

ولا بد أنها غفت قليلاً. وإذا بها تسمع حركة الجنرال، فأدركت ان الفجر قريب البزوغ.

خيل إليها أن ثمة ضوءاً خافتاً في ناحية الشرق، كما أن النجوم لم تكن تبدو بتألقها المعتاد.

سألته هامسة: «ما الذي ستفعله؟»

www.rewity.com

كانت هذه الكلمات أول ما نطقت به بعد أن شكرها لانقاذها حياته.

فأجاب: «سأذهب للتأكد من أن كل شخص على استعداد.»

«اتظنهم سيأتون... مبكرين؟»

فأجاب: «اتصور أنهم سيبدأون مسيرتهم عند الفجر. فهذا ما كنت سأفعله أنا لو كنت في مكانهم.»

سألته وقد بدت الرجفة في صوتها: «هل سيكونون... كثيري... العدد؟»

أجاب الجنرال: «إنني لست خائفاً من كثرة عددهم، وإنما من مدافعهم فإذا كانوا يملكون كما سمعت مدافع طويلة المدى، فإن علينا ان نسكتهم قبل أن يقصفوا مدينة زانتوس.»

وشعرت ثيولا بالحزن.

كانت تعلم ان المدينة لم تكن مبنية بحيث تقاوم قصف القنابل، وحيث ان الناس تحتشد فيها، كان يجعل الأمر اسوأ.

وإذ لم تستطع أن تفهم سر سياسته تلك، لم تجد مناصاً من أن تسأله: «لماذا ادخلت إلى المدينة كل أولئك الناس؟ ألا يجعل هذا عدد الضحايا والمصابين اكثر عدداً؟»

وأدركت ان الجنرال ينظر إليها بحدة من خلال الظلام، وكأنما أدهشه سؤالها.

ثم أجابها قائلاً: «إذا مرت قوات الملك من هذا الوادي، واستولت فيه على موضع قدم فسترسل عصابات لقتل الفلاحين في قراهم ثم احضار قطعان

مواشيهم. فالجيوش هي دوماً جائعة، ولا أظن الملك قد وجد مخزونات ضخمة من المواد الغذائية بانتظاره عند الحدود.»

فقالت ثيولا: «هذا صحيح. لقد فهمت الآن.»

فقال: «من غير العادي أن تهتم إمرأة بتحركات الجيوش.»

أجابت: «إن ما يهمني فقط هو جيشك ولكنني اكره ما سيتعرض له الناس من آلام في هذه المعركة مهما كان ولاؤهم.»

فقال: «وهذا ما يجعلني اعتقد بأننا، إذ نهاجم قوات العدو هنا فسيكون بإمكاننا، إذا نحن انتصرنا ان ننقذ كثيرين من الآلام.»

فقالت بهدوء: «كنت طوال الليل ادعو لك بالنصر، وأظنك فعلت ذلك أنت أيضاً.»

ولكن هذا الكلام كان سهلاً عليها وهو مجرد ظل في نهاية الكهف.

أجابها: «إنني اعتقد من أن دعاءك سيستجاب. هل لي أن اخبرك مرة أخرى بمبلغ شكري لك، ليس فقط لانقاذك حياتي وإنما أيضاً لشجاعتك في القدوم معنا.»

فقالت: «أظن الحقيقة هي أنني لم أكن شجاعة بما فيه الكفاية لاتخلف عنكم.»

فأجاب: «ليست هذه هي الطريق التي تنظر فيها اكثر النساء إلى هذا الوضع.»

سألته مترددة: «اتظن رجالك... مسرورين لوجودي... معكم؟»

«أظن أن كل رجل سيقاتل كما لم يقاتل من قبل، واثقاً من أعماق قلبه بأننا سننتصر.»

كان الجنرال يتكلم والإخلاص ينبض في صوته. فأجابته ثيولا بعد لحظة: «اشكرك... لاخبارك لي... بذلك.»

فقال: «عندما رأيتك على صهوة الجواد معنا أمس، بدوت مثل جان دارك متبعة الهام الأصوات التي كانت تسمعها والتي بعثت الشجاعة في الفرنسيين الذين كانت عزائمهم قد تراخت.»

فقالت: «هذا ما أريد... القيام به ولكنني خائفة من أن... أفشل.»

فسألها: «لماذا هذا الخوف في حين أنك حتى هذه اللحظة كنت في منتهى الروعة؟ كان بامكانك ان ترفضي عندما عرضت عليك الزواج، ولم أحلم قط بأنك سترافقينني إلى الجبهة الأمامية للقتال.»

ونهض الجنرال أثناء كلامه فأدركت ثيولا الآن أن أول خيوط الفجر قد زحفت نحو السماء وذلك أثناء تبادلهما الحديث.

ونهضت هي أيضاً لتقف بجانبه وتنظر إلى الجبال على جانبي الوادي.

لم تكن هناك حركة تلحظ. لقد بدا المكان مهجوراً كلياً ومع هذا كان مئات من الرجال ينتظرون هناك جاهزي السلاح على استعداد لأن يُقتلوا أو يُقتلوا في سبيل المستقبل.

سألته: «هل من الضروري أن... تذهب الآن؟»

فقال بلهجة السيطرة: «عليك أن تبقي هنا. هناك رجلان

على جانبي مدخل الكهف بإمكاني أن أئتمنهما على حياتي. وإذا ساءت الأمور يمكنك أن تضعي ثقتك فيهما في أخذك إلى مكان آمن.»

كانت ثيولا تعلم تماماً ما يعنيه بقوله: (إذا ساءت الأمور) انه معنى اذا هو قتل.

شعرت بوخزة في قلبها وإذا بها تتقدم بحركة عفوية تقف بقربه وهي تقول له: «هل ستكون حذراً؟ عدني بذلك وبعدم تعريض نفسك للمخاطر.»

فلم يجب، وبعد لحظة تابعت تقول: «عليك أن تعلم أن كل شيء سيفشل من دونك. إن مستقبل كافونيا بأسره يعتمد على بقائك حياً.»

سألها: «هل يهمك أمرنا في هذه البلاد الصغيرة التي لا أهمية لها؟»

أجابت: «طبعاً انني الآن جزء منكم، ولهذا، أرجوك... أرجوك أن تكون حذراً.»

وشعرت لحظة بضعف في ساقيها أوشكت فيها أن تسقط إلى الأرض.

جلست على البطانية دون وعي منها. إنها تدرك الآن بأنها تحبه، كما أنها لم تعرف قط من قبل ولم تتصور أن الحب هو بهذا الشكل.

دوماً كانت تفكر في أنه شعور دافىء، سعيد، مريح، تماماً كالحب الذي كانت تراه بين أمها وأبيها.

وتمتمت هامسة: إني أحبه... أحبه.

إنها تعلم الآن بأنها لا بد أحبته منذ خلصها من ذلك الجندي، فشعرت عند ذاك بالأمن والحماية معه.

كان شيئاً لم تعرفه منذ وفاة والديها... هذا الشعور بالأمن وعدم الخوف.

حتى بعد كل ما عانته، والرعب الذي أثاره في نفسها ذلك الجندي الطائش، قد أدركت أيضاً رغم عدم تمكنها من تفسيره لنفسها، بأن اليكسيوس فازيلاس يعني بالنسبة إليها، شيئاً خاصاً جداً... شيئاً يختلف عن كل ما سبق وواجهته في حياتها من قبل.

إنه الحب. وسألت نفسها لماذا لم تعرف ذلك من قبل.

كان هو الحب الذي جعلها تشتاق إلى قربه والتحدث إليه. كان هو الحب، رغم عدم وجود فكرة لديها عنه من قبل، الذي جعلها تقبل عرضه للزواج.

كان قد قال إن هذا الزواج لحمايتها.

وإذ رجعت بأفكارها إلى الوراء، تأكدت من أنها كانت ستخاف وتتلكأ في الاستجابة لو أن اقتراح الزواج هذا قد عرضه عليها أي رجل آخر.

ولكنها استجابت إلى اليكسيوس فازيلاس بكل جوارحها، وقامت بكل ما أرادها أن تفعله، ذلك لأنها كانت تحبه.

وحدثت نفسها قائلة: لقد انقذت حياته! لقد أنقذته! لم يكن ذلك لأجل كافونيا فقط، بل لأنه إذا كان مات، كنت سأموت أنا أيضاً من الحزن.

وسمعت ضجة مفاجئة، فرفعت رأسها لترى ظلام الليل يتلاشى والنجوم قد اختفت.

كان الفجر ينتشر الآن من وراء الجبال، وفي الناحية الأخرى من الوادي كانت القمم قد تحولت من اللون الفضي

الذي كان ضوء القمر قد أسبغه عليها، إلى ألوان متنوعة يخطف سناها الأبصار.

كانت الضجة التي كانت ثيولا قد سمعتها تتصاعد من الوادي فنظرت إلى أسفل حيث كان الطريق الملتف واضحاً تماماً الآن.

لم تكن قد لاحظت في الليلة السابقة وجود جدول مائي يجري بجانبه، وكان صخرياً وغير عميق في هذا الوقت من السنة، ولكنه في الشتاء، كان يرتفع بسبب الشلالات التي كانت تصب فيه من قمم الجبال الثلجية.

كان الطريق خالياً ولا شيء يمكن رؤيته. ومع هذا كانت الضجة تتصاعد، ما جعل ثيولا تدرك وقد تملكتها رجفة الخوف، بأنها ضجة مشية عسكرية.

كانت تعلم بأن كل رجل تحت قيادة اليكسيوس فازيلاس قد سمع كما سمعت اقتراب العدو فجهزوا اسلحتهم في انتظار الأمر باطلاق النار.

وكانت هي تعلم أن هذا الأمر يعطيه الجنرال وتمنت لو تعرف أين هو لتتمكن من رؤيته.

لا بد أنه، بعد كلامها معه، لن يجازف أو يعرض نفسه للخطر.

يجب أن يفهم بأنه يمكنه أن يساعد شعبه فقط ببقائه حذراً ليبقى حياً.

ذلك أنه إذا مات، فسيبقون دون قائد.

وأخذت تحدث نفسها بذعر، يجب أن يحاذر على نفسه. يجب عليه ذلك.

لقد كانت توسلت إليه من قبل بأن يحاذر على نفسه

ولكنها الآن بعد أن اعترفت لنفسها بأنها تحبه، أصبح التفكير في أنه في خطر، يشكل لها عذاباً هائلاً.

ربما ستصيبه رصاصة طائشة، وربما سيصاب في المعركة بشكل مباشر حيث أن كل جندي في جيش الملك كان يعلم مثلها بأنه إذا قتل اليكسيوس فازيلاس فستنتهي الثورة.

كان صوت وقع الأقدام الثقيلة الذي كان قادماً من جنوب الوادي يعلو، ورأت ثيولا أوائل الجنود وقد أصبحوا في مرأى النظر.

كان ضوء النهار ينتشر شيئاً فشيئاً، فرأت ضابطاً على صهوة جواده يحيط به اثنان من حرس الملك، وقد تألقت خوذتاهما، اللتان ذكرتاها بجنود الاغريق القدماء في أشعة الشمس.

وجاء خلفهم سلاح المدفعية، صفاً طويلاً ثقيلاً هي التي كانت تخيف اليكسيوس فازيلاس والتي كانت ثيولا تعلم أن بإمكانها أن تقصف زانتوس وتحيلها أنقاضاً.

كان كل مدفع منها يجره أربعة بغال. وعندما أخذ الصف يتقدم ببطء في الطريق، رأت انها ثمانية، ثمانية مدافع ثقيلة كان طاقم كل منها يسير خلفها، ستة رجال لكل منها.

خلف المدافع جاء المزيد من الضباط في ستراتهم الحمراء يقودون رجالاً يسيرون بخطوات عسكرية في شكل منتظم رائع يختلف جداً عن تلك الحشود العفوية الودود التي كانت تحت قيادة اليكسيوس فازيلاس.

كان من غير الممكن بالنسبة إلى ثيولا، ان ترى من تلك المسافة البعيدة بنادقهم بوضوح، ولكنها كانت واثقة من أنها احدث طراز من البنادق السريعة الطلقات. وفكرت بيأس في تلك المدافع الأثرية التي رأت رجالهم ينقلونها.

وحدثت نفسها وقد تملكها القلق، كيف بإمكاننا أن ننتصر على مثل تلك الأسلحة المنيعة؟

وشبكت يديها ببعضهما وهي تشعر بأنه لم يعد أمام جيش الشعب سوى الإيمان والدعاء الآن.

كان الضابط قائد المدفعية قد أصبح في منتصف طريق الوادي وما زال خلفه جنود لم يدخلوا الوادي بعد.

ورأت ثيولا أنه لا بد هناك المئات منهم وتصورت أن عدداً كبيراً من المرتزقة لم يتوقعه الجنرال، لا بد التحقوا مؤخراً بقوات الملك، إذا لم يكونوا من كافونيا فمن اليونان.

واستمروا سائرين على الأرض بخطوات منتظمة بينما المدافع تقرقع فوق الطريق الصخرية. وكان الجنود ينهرون البغال أحياناً، وعدا ذلك، إلى الخطوات العسكرية، كان السكون يعم الانحاء.

لم تكن هناك أوامر حادة ولا ارتفاع في الأصوات كانت هناك فقط قرقعة العجلات وأصوات حوافر الخيل والخطوات العسكرية.

كان الجو الذي يحدثه كل هذا، رهيباً غامضاً... مفزعاً.

يا لوفرة عددهم، ويا لانتظام افواجهم المحكمة الدقيقة الخالية من أي خطأ.

كان هناك الجنود النظاميون، كما كان هناك جنود تدربوا خصيصاً للقتل.

وتملكت ثيولا فكرة أنه لم يكن بينهم كثيرون من الكافونيين رغم أنها بالطبع لم تكن واثقة تماماً من ذلك.

كان الجنرال قد قال بأن معظم الجيش الكافوني قد انضم إليه، وكانت تعلم أن هناك الكثير من الجنود النظاميين بين اولئك الكامنين في جانبي الوادي.

ولكن كان هنالك أيضاً عدد كبير من المواطنين العاديين والذين كانوا مجرد اتباع لاليكسيوس فازيلاس لم يتلقوا أي تدريب عسكري ما عدا القليل الذي تمكن من اعطائهم إياه.

وكان من المحتمل أن يشعروا بأن قوات الملك ستكتسحهم.

وحدثت ثيولا نفسها بقولها: لشد ما أنا خائفة. وتساءلت عما إذا كان من المحتمل أن يلقي اولئك الرجال الكامنون خلف الصخور وفي الكهوف والأغوار، بأسلحتهم ثم يولوا هاربين مفضلين ذلك على المجازفة بحياتهم.

ولكنها لم تستطع أن تصدق بأنهم قد يتخلون عن قائدهم، وخصوصاً إذا كان ذلك القائد هو اليكسيوس فازيلاس.

ولكن من يضمن تصرف الرجل غير المدرب قليل التجارب إذا جاءت اللحظة التي عليه أن يخاطر بالشيء الثمين الوحيد الذي يملكه... وهو حياته؟

كانت ترى الضابط قائد المدفعية وقد اقترب من نهاية الوادي.

كما انه أصبح بإمكانها أن ترى أن آخر قوات الملك قد ظهرت. وبدا تحتها طابور طويل من الجنود يتحركون بدقة وخطوات منتظمة، وقد ملأوا طريق الوادي بأجمعه.

كان منظر كل ذلك بالغ الرهبة حقاً! وفكرت ثيولا بفزع في أنه لولا الكافونيون المختبئون، ربما كان اليكسيوس فازيلاس غيّر رأيه.

ربما تراه قد قرر أن الوضع ميئوس منه... وربما لم يشأ أن يجازف بحياة أفراد شعبه مفضلاً الاستسلام للملك.

وما أن ارتجفت لهذه الفكرة، حتى سمعت فجأة، صوت طلق ناري.

دوّى الطلق، وما أن تردد صداه في الجبال مرة بعد مرة، حتى سقط قائدهم من على جواده بينما انطلق الحصان بعيداً دون ان يصيبه أذى.

وكانت هذه اشارة لبدء اطلاق النار من جانبي الوادي.

أخذ رجال اليكسيوس فازيلاس يطلقون النار من مكامنهم خلف الصخور، من الكهوف، من الأغوار، من الفجوات.

وتخلخل النظام الدقيق للجنود أسفل وهم يتراكضون هنا وهناك يلتمسون ملجأ من الرصاص المنهمر عليهم.

أما البغال التي كانت تجر المدافع، فهي فقط، التي تابعت السير في الطريق مسرعة خطاها أو تتخبط في سيرها هنا وهناك بعنف، مذعورة من صوت اطلاق النار.

وورد عليهم الجنود الآن بطلقات متفرقة... ولكنها كانت طلقات قليلة العدد.

كان الضجيج يصمّ الآذان، ليس فقط من دوي طلقات البنادق، ولكن كذلك من تردد صداها في الوادي.

كانت كل طلقة يتردد صداها مرة بعد مرة في الكهوف وبين الجبال، ويتعاظم دويها حتى يكاد يخترق الآذان.

أصبح الآن جنود الملك جميعاً ما بين قتيل على الأرض أو جاثم خلف الصخور، حتى إذا قضى الرصاص على عدد هائل منهم، أخذوا بالهرب.

كان رجال المدفعية هم الذين هربوا أولاً، حيث أنه لم تكن لديهم أسلحة شخصية. وما أن أخذوا يشقون طريقهم بعنف متراجعين، حتى انضم إليهم آخرون وهم يلقون بأسلحتهم التي كانت تعيق هربهم، حتى ان البعض منهم خلعوا ستراتهم لكي يستطيعوا الركض بسرعة اكثر.

حدث كل شيء بسرعة جعلت من الصعب ادراك ما حدث بالضبط، ذلك أن رجال المدفعية كانوا هم البادئين بالانهزام بشكل يدعو إلى الرثاء.

لقد هرب الرجال بعد أن ملأهم الرعب، ناسين كل شيء ما عدا البحث عن ملجأ يقيهم. أما الذين تخلفوا عنهم فلم يكونوا يطلقون النار لأنهم كانوا أمواتاً.

ورأت ثيولا عدة ضباط يحاولون أن يوقفوا تيار التراجع هذا، ولكن دون فائدة.

فأولئك الذين ما زالوا على جيادهم، قد هربوا بعيداً، أما الآخرون فقد ركضوا خلفهم بكل ما يستطيعونه من سرعة.

عند ذلك، رأت ثيولا مقاتليهم يخرجون من مكامنهم ثم ينحدرون نحو الوادي.

لقد رأت الجنرال يلقي بأوامره فيسارع الرجال إلى طاعته وأصواتهم تتصاعد بالهتاف.

كانت أصواتهم تعلو بهتافات انتصارهم الساحق وتدفقت الدموع من عينيها للراحة الغامرة التي شعرت بها بعد تلك الخوف الذي عانته حتى لم تعد تستطيع أن ترى شيئاً.

* * *

مضى وقت طويل قبل أن يأتي إليها الميجور بيتلوس ليخبرها بأنه سيصحبها إلى حيث ينتظرها الجنرال.

رأت السعادة تبدو عليه بكل معانيها، رغم أن بزته الأنيقة كان يعلوها التراب. وكان على خده خدش طويل وفي إحدى يديه إصبع ينزف.

هتفت تسأله: «هل أنت مصاب؟»

فأجاب: «الذنب في ذلك ذنبي، فقد كنت، في لهفتي، أنزل من الجبل مسرعاً لكي أصل إلى الطريق.»

فقالت: «لقد انتصرنا.»

قال وعيناه تتألقان: «كان انتصاراً رائعاً. ومن سوى الجنرال يمكنه أن يحقق مثل هذا؟»

فسألته: «هل وقعت بيننا اصابات كثيرة؟»

فأجاب: «لقد جرح بعض الرجال، أما الذين قتلوا فقد كان ذلك بسبب تعريض أنفسهم دون ضرورة.»

وتنهد، ثم عاد يقول: «الجنرال وحده كان بإمكانه أن يخطط، ليس لهزيمة العدو فقط، وانما أيضاً لجعل رجالنا يضبطون أعصابهم فلا يطلقون النار إلا في اللحظة الأخيرة.»

ضحك وهو يتابع: «لم يكن الأمر سهلاً. فأولئك الجنود غير المدربين كانوا بشوق لاطلاق النار. ولم نستطع ضبطهم إلا لأنهم كانوا خائفين من عصيانهم للجنرال.»

كانت ثيولا قد وضعت قبعتها على رأسها ووقفت تنتظر وهي تنفض الرمال عن تنورتها وتمد يدها المسكوة بالقفاز الى الميجور بيتلوس لكي يساعدها على النزول من الجبل.

قال: «إنك تحيرينني يا سيدتي وذلك إذ تبدين بالغة الأناقة والنظافة. وأنا واثق من أن رجالنا سيعتقدون أن انتصارهم كان بسبب أصلك.»

فقالت: «إنني مسرورة جداً لوجودي هنا. أظن كنت سأجن لو أنه كان علي أن انتظر في زانتوس، فلا أعلم ما الذي يحدث.»

إذا كانت هي مسرورة لوجودها مع القوات المحاربة، فلا شك أنهم كانوا يشعرون بالفخر، وهي تنزل من الجبل، لوجودها معهم.

كانت غالبية الرجال مجتمعة حول المدافع ينظرون إليها باحترام مدركين أنهم إذ غنموا من جيش الملك أهم اسلحته المنيعة، فقد تأكدوا من أنه لم تعد لديه إمكانية الرد بالثأر.

وكان رجال آخرون يجمعون البنادق التي كان ألقى بها الجيش المنسحب، بينما غيرهم يعتني بجرحى العدو محاولين اراحتهم قدر الامكان.

وسمعت ثيولا الجنرال يقول: «أخبروهم بأننا سنرسل إليهم عربات تحملهم إلى زانتوس حيث سيعالجهم الطبيب.»

وعندما نزلت ثيولا آخر منحدر قبل أن تصل إلى الطريق، التفت الجنود ورأوها. وسرعان ما تصاعد الهتاف بشكل عفوي، ومن الاعماق، ما جعل الدموع تنحدر من عينيها.

وعندما أدرك الجنرال سبب هتافهم، استدار نحو ثيولا والميجور بيتلوس، ولكنه لم يستطع الوصول إليهما.

وتملكها الخجل لتكريمهم هذا لها، ولم تملك إلا أن تشكرهم بلغتهم وهي تبتسم لهم.

وتزاحم الجميع حولها لتكريمها.

وعندما شعرت بأنها ربما تعيقهم عن تلقي أوامر الجنرال، نظرت نحوه فرأته يراقبها وقد بدت في عينيه نظرة غريبة.

ولم تستطع أن تفهم ما إذا كان مسروراً أم متضايقاً، ولكن بعد لحظة قادها الميجور بيتلوس الى جوادها حيث جلست على صهوة الجواد. وهو يقول: «انهم يحبونك ويحترمونك. أرجو أن يعجبك أن تكوني محبوبة إلى هذا الحد، يا سيدتي.»

شعرت بأنه يحاول أن يخفف من خوفها فابتسمت له، ولكن كان من الصعب عليها أن تتكلم نظراً لتأثرها البالغ بتصرفات الجنود.

وبعد أن اعطى الجنرال بعض الأوامر، أشار الى ثيولا بأن تتقدم إلى جانبه ثم سارا معاً أمام طابور طويل من الرجال والمدافع في طريق العودة إلى زانتوس.

كانت تعلم أن هذا عرض متعمد للقوة لكي يمنح أهالي المدينة الثقة وأيضاً لكي يمنحهم فرصة الهتاف للرجال الذين انقذوهم من الدماء على أيدي قوات الملك.

أثناء سيرهما، كانت هي تنظر إليه متمنية ان يتحدث إليها.

ولكن لم يكن ثمة فرصة لأحاديث خاصة في الوقت الذي كان ثمة من يوجه إليه سؤالاً في كل لحظة، أو ان يوجه أمراً يستلزم رجوعه على طول صف من رجاله لكي يتحدث إلى أحد الضباط الذين كانوا يراقبون تقدم المدفعية.

وقبل أن يصلوا إلى زانتوس بوقت طويل، أدركت ثيولا أن بشائر النصر قد سبقتهم إلى المدينة.

فقد رأوا حشوداً من الناس خارجين لملاقاتهم كما كانت الاعلام تخفق فوق البيت.

كانت هتافات الاستبشار والتشجيع، وإلقاء الزهور والبهجة العارمة التي تملكت الناس، كل ذلك قد فاق كل ما كانت ثيولا تتصوره.

وعندما وصلا إلى الساحة العامة، أخذ الأولاد يلقون الأزهار أمام جواديهما، كما كان الناس يصيحون بكلمات الترحيب بينما دموع السعادة كانت تغسل وجنات النساء المسنات.

كل ذلك جعل من الصعب عليها وعلى الجنرال، التقدم حيث أن جواديهما لم يستطيعا أن يخترقا تلك الحشود.

كانت ثيولا تعلم أن ذلك سببه النساء الكثيرات اللاتي كن يحاولن وضع الزهور بين ذراعيها.

كان من غير الممكن أن تقبل كل ما كانوا يعطونها بينما تمسك اللجام فتسقط الزهور إلى الأرض ولكن لتحتل مكانها زهور أخرى بكميات وافرة.

وبدا لثيولا أن وصولهما إلى القصر استغرق ساعات، وحتى عند ذاك، زحفت الحشود التي كانت تتبعهما إلى الساحة متدافعين، ولم يتوقفوا الا عند الدرجات الصاعدة إلى الباب الأمامي.

ترجل الجنرال، وعندما أخذ الميجور بيتلوس، والذي كان خلفهما، يساعد ثيولا على النزول الى الأرض، مد يده يمسك بيدها يرتقي معها الدرجات، وعندما وصل إلى اعلى السلم، استدار يواجه الجموع.

على مد نظرها، كانت هناك حشود لا نهاية لها تملأ ساحة القصر والشارع العريض الذي يصل إلى الساحة العامة، ومتسلقة الجدران والأشجار، صائحين هاتفين هازجين بأهازيج النصر.

أخذت ثيولا تلوح لهم بيدها إلى أن شعرت بالألم في ذراعها. وعند ذلك استدار الجنرال واتجه بها إلى داخل القصر.

قال لها: «لا بد انك تشعرين بالتعب الشديد. اذهبي إلى غرفتك وخذي قسطاً من الراحة. وسأتدبر أمر ارسال بعض الطعام لك حالاً.»

كانت هذه أول كلمات يوجهها إليها منذ كان تركها عند الفجر قبل بدء القتال، ولكن قبل أن تجيبه، كان قد أشاح بوجهه عنها مبتعداً، وسرعان ما كان محاطاً بالضباط الذين كانوا يطلبون منه التعليمات.

صعدت إلى الطابق الأعلى وهي ترى نفسها متعبة حقا، رغم ما كان يتملكها من الفرح والبهجة بما حدث.

كانت ماغارا في انتظارها، وما أن مدت ثيولا يديها

إليها لتحتضنها حتى قالت والدموع تنهمر من عينيها: «لقد انتصرنا، يا سيدتي. إننا احرار.»

فقالت ثيولا: «نعم لقد انتصرنا، ولكنني يا ماغارا أشعر بالقذارة في جسمي بعد نومي طوال الليل في ملابسي. أريد ان اغتسل ثم علي أن أنام فترة.»

«لا بد لك من ذلك، يا سيدتي، لأن في انتظارك الكثير من العمل.»

كانت في الواقع تعبة جداً بحيث اغتسلت بسرعة. وعندما ذهبت نحو الفراش، استسلمت للرقاد على الفور.

* * *

استيقظت ثيولا شاعرة بكل ذلك التعب قد محى وزال، ليحل مكانه الانتعاش والنشاط والتأهب.

ضغطت على الجرس بجانب فراشها فظهرت ماغارا على الفور، وهي تقول: «لقد كنت اتساءل لتوي عما اذا كان علي ان اوقظك يا سيدتي. هل تعلمين أن الوقت قد حان لتبديل ثيابك لتناول العشاء.»

فهتفت ثيولا بذعر: «أتراني تأخرت في النوم إلى هذا الحد؟ كيف أمكنني النوم هذا الوقت الطويل بينما أمامي الكثير مما أريد أن اعمله، والكثير مما أحب سماعه؟»

فقالت ماغارا: «ما زالت الحشود في الخارج تطلبك. وكذلك أرغم الجنرال على الخروج إليهم والتلويح لهم عدة مرات. وقد رفض أن يدعنا نوقظك.»

فقالت ثيولا: «لا بد أنه متعب هو أيضاً.»

فضحكت ماغارا وهي تقول: «لا أظن ذلك، يا سيدتي.

فالجنرال معروف عنه بأنه لا يتعب. ألم يخبرك أحد بذلك؟»

فأجابت ثيولا: «كلا. لم يخبرني أحد.»

فقالت المرأة: «ذات يوم، وكان يقوم بزيارة لشعبه بين الجبال، وجد صبياً صغيراً هو ابن راعٍ، كان قد سقط في فجوة عميقة فأصيبت ساقه. ولولا أن اكتشفه الجنرال لكان مات. وحيث أن اقرب طبيب كان يبعد أميالاً كثيرة، فقد حمله وسار به ثلاثة أيام بلياليها إلى أن وصل به إلى الطبيب.»

فقالت ثيولا: «ما أعجب هذا.»

فابتسمت ماغارا: «إن الجنرال شخص عجيب حقاً. فهو ليس كأي رجل آخر، يا سيدتي، تماماً كما أنك لست كأي امرأة أخرى.»

فقالت ثيولا: «عليك ألاّ تقولي مثل هذا، فأنا عادية تماماً.»

«ليس ثمة في كافونيا من يصدق ذلك بعد ما رأوك أمس.»

فقالت ثيولا: «لست أنا الذي أتيتهم بالنصر بل الجنرال.»

فقالت ماغارا: «والجنرال أيضاً. ولكنني سمعت أنه لولا انقاذك لحياته لما جاءنا النصر، وما كنا لنحتفل به الآن.»

نظرت إليها ثيولا بدهشة: «وكيف علمت ذلك؟»

أجابت: «لقد أخبرنا بذلك الجنرال نفسه، عندما وقف على درجات باب القصر الأمامي عند عصر هذا اليوم وأخذ

الجميع يهتفون له، أخبرهم بأن الفضل لك في إنقاذه من طعنة خنجر.»

لم تجب ثيولا. لقد أدهشها أن يخبرهم الجنرال بما حدث. ذلك أن شرح الواقعة لهم ربما تجعلهم يرونه ليس كما يجب أن يكون عليه من اليقظة مما جعل العدو يصل إليه ليطعنه بالخنجر.

ولكنه، مع هذا أراد أن يخبرهم بما حدث ليظهرها أمامهم بطلة ويعزز موقعها في نفوسهم.

ولم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير في امكان أن يكون الجنرال يهتم بها بشكل خاص ولو قليلاً.

ولم تجرؤ على التفكير، ولو بينها وبين نفسها، في أنه قد يكون محباً لها.

حدثت نفسها قائلة: إني أحبه ولكن يجب ألا يعلم هو ذلك إذا لم يكن يحبني.

فقد كانت ترى أنه إذا كان يحبها حقاً، لتحدث إليها على الأقل قبل أن يبدأ رحلة العودة إلى زانتوس.

كانت تتمنى لو كان قال لها شيئاً وهما سائران أمام الجنود وعندما واجها الحشود الهاتفة.

ولكن كان باستطاعته، بكل تأكيد، أن يصعد معها السلم ليقول لها ولو كلمة قبل أن تنام.

وسألتها ماغارا عما إذا كانت تريد شيئاً تأكله أو تشربه، ولكنها كانت عازمة على الانتظار إلى أن يحين وقت العشاء، آملة أن تتناول العشاء مع الجنرال بمفردهما.

لقد أصبحت الآن من اللهفة لرؤيته إلى درجة لم تكن لديها

سوى فكرة واحدة، وهي أن ترتدي ثيابها بسرعة لتكون مستعدة إذا هو أرسل يطلبها أو جاء إليها.

سألت: «ماذا سألبس، يا ماغارا؟»

فأجابت هذه: «لقد جعلت كل الثياب بقياسك يا سيدتي.»

فقالت ثيولا: «وكيف أمكنك القيام بذلك؟»

«لقد اشتغلت بها الليل بطوله، يا سيدتي.»

«آه، يا ماغارا، ما هذه السخافة؟ لا بد أنك تعبت جداً.»

أجابت ماغارا: «وكيف استطيع النوم وأنا أفكر في أنك ربما في خطر؟»

فقالت ثيولا وقد تملكها التأثر: «كان عليك أن تفكري في أنني سأكون في أمان مع الجنرال.»

«ربما كنت في أمان معه، يا سيدتي، ولكنه ما كان سينجو من الخطر لولاك.»

وفكرت ثيولا في أن هذا صحيح.

فلو أنها لم تكن مستيقظة، أو لو أنها كانت نائمة مثله دون أن تنظر إلى الوادي، لكان بإمكان المهاجم أن يدخل عليهما الكهف دون أن ينتبه إليه أي منهما.

قالت ماغارا: «ان الناس تتساءل متى سيكون التتويج.»

فهتفت: «التتويج؟»

فقالت ماغارا: «إن اليكسيوس فازيلاس هو الوريث الشرعي للسلطة. فقد حكم والده مدة خمسة عشر عاماً، كما حكم جده مدة عشرين عاماً.»

وسكتت، وعندما رأت اهتمام ثيولا بكلامها، تابعت تقول: «لم تكن البلاد، في تلك الأيام، موحدة تماماً مثلها الآن، وكان هناك أمراء يطالبون بأراض واسعة ولدى كل منهم امارته.»

فسألتها ثيولا: «وماذا حدث لهم؟»

«أكثرهم ثاروا ضد الملك فرديناند عندما جاء إلى السلطة فاختلف مصيرهم بين القتل في المعارك وبين النفي.»

فسألتها ثيولا: «ألم يبق أحد منهم؟»

«لا أحد ذو أهمية. وهكذا سيصبح اليكسيوس فازيلاس ملك كافونيا بأجمعها.»

فحبست ثيولا أنفاسها وقد أدركت أنه من السخافة أن تفكر لحظة في أنها قد تصبح ملكة.

إن كاترين هي التي يسرها الأبهة والتاج، ولكن ثيولا كانت تعلم بأنها ليست الحياة التي تحبها، فهي في الواقع لا يلائمها هذا النوع من الحياة.

ولأول مرة تتذكر ان أليكسيوس فازيلاس لا يعرف شيئاً عنها ما عدا انها ابنة أخت سبتيموس.

لقد كان خالها قد قال لها ان عليها ألاّ تتزوج أبداً بسبب العار الذي الحقته أمها بالأسرة وذلك بمزجها دمها النبيل بدم رجل من العامة.

أترى اليكسيوس فازيلاس سيرى في ذلك عاراً؟

فهو أمير... وهو من النبلاء.

لم يسبق لثيولا أن فكرت فيه من هذه الناحية من قبل. فقد كانت دوماً تتذكر مظهره عندما خرج من ذلك البيت

المقفل بزي الفلاحين وذلك لكي يحمل الطفلة المصابة بين ذراعيه.

كما أن بزته العسكرية هي دوماً من دون زينة ما عدا أوسمته التي علقها على صدره أثناء عقد الزواج.

ومع هذا فقد كان من أسرة مالكة ربما هي أقدم من أسرة الملك فرديناند.

حدثت نفسها بأن عليها أن تخبره عن وضعها بالنسبة إلى أمها. وشعرت لذلك بنفور من تصرفها هذا إذ كانت تخاف من ردة فعله.

وفي هذه الأثناء، كانت ماغارا ما زالت في انتظار اختيارها ثوباً لتلبسه.

كان في الخزانة العديد من الأثواب وكلها رائعة الجمال وتختلف عن كل ثوب ارتدته في حياتها.

وفجأة، شعرت بالخجل والمذلة والخزي من نفسها تقريباً.

كيف يمكنها، هي التي قال عنها خالها انها مثل أية خادمة، أن تكون في قصر ملكي وترتدي ثياب ابنة خالها، ثم تغش أمير كافونيا الوارث موهمة إياه بأنها ذات شأن؟

وحدثت نفسها وهي تشعر بالتعاسة، ربما لو كان علم منذ البداية أنني لست من يظنها، لما كان عرض علي الزواج حتى ولو كان زواجاً صورياً.

وسألت نفسها، ماذا بإمكاني عمله؟

فقد كانت تدرك أن صمتها يزيد الأمور سوءاً. إذ عاجلاً أم آجلاً سيكتشف اليكسيوس فازيلاس حقيقتها.

لقد كانت واثقة من أنه إذا لم يخبره أحد عن ذلك، فإن خالها، إذا هو سمع بزواجهما، سيجعل الأمور في غاية السوء بالنسبة إليها.

وارتجفت خوفاً وهي تفكر في أنه سيعترض على زواجهما.

وحدثت نفسها بأن هذا وحده يصلح مبرراً لاليكسيوس فازيلاس لكي يفسخ زواجهما.

وهتفت ماغارا: «عليك أن ترتدي ثيابك.» فقطعت بذلك أفكار ثيولا التي انتبهت إلى أنها واقفة منذ فترة طويلة تحدق في ثياب كاترين، وهي لا تفكر سوى في مشكلتها.

فسألتها: «أيها ترينه الأنسب، يا ماغارا؟»

فقالت ماغارا: «لقد ارتديت أمس ثوباً أبيض، يا سيدتي، فبدوت أميرة، أما الليلة فأظن أن عليك أن تبدي كإمرأة لأجل زوجك.»

فلم تجب ثيولا بينما أخرجت ماغارا من الخزانة ثوباً ذا لون وردي فاتح.

ولأنها كانت قلقة، لم تكد تنظر إلى المرآة عندما كانت ماغارا تمشط لها شعرها ثم تزينه بباقة صغيرة منه.

وكانت على وشك الانتهاء، عندما سمعت طرق على الباب.

ذهبت ماغارا لتفتحه، ثم عادت إلى الغرفة وهي تقول بصوت بان فيه خيبة الأمل: «الجنرال يرسل إليك تحياته، يا سيدتي، ولكنه مشغول جداً عن تناول العشاء معك هذا المساء، وبدلاً من ذلك أرسل عشاءك إلى هنا.»

وفكرت ثيولا في أن هذا ما كان عليها أن تتوقعه بعدما لم يعد بحاجة إلى خدماتها.

وكانت ماغارا ما تزال تتكلم: «يقول الجنرال انه سيزورك فيما بعد، هذا المساء.»

فقالت ثيولا: «إنني اعذره تماماً.»

كان صوتها فاتراً وقد خمد التألق في عينيها.

لقد انتهت المعركة بما يتعلق بها، وهي الآن واثقة من أنها هزمت.

www.rewity.com

الفصل السادس

قالت ماغارا عندما جاءت لرفع الأطباق عن المائدة التي كانت ثيولا قد تناولت عشاءها عليها: «انك لم تأكلي شيئاً، يا سيدتي.»

فأجابت ثيولا: «إني لست جائعة.»

فقالت ماغارا: «بل لا بد انك جائعة، فأنت لم تأكلي أمس إلا قليلاً، ولا شيء إطلاقاً أثناء الليل، وبعد أن وصلت من الجبال واحضرت انا لك شيئاً من الطعام، كنت مستغرقة في النوم بحيث لم أشأ ان أوقظك.»

فعادت ثيولا تقول: «إني لست جائعة.» كانت تعلم أنه شعورها بالتوجس والتعاسة، ما جعلها تشعر وكأن حلقها قد ضاق حتى أصبح من الصعب عليها أن تبتلع شيئاً. ونهضت عن المائدة متجهة إلى النافذة. لقد كانت شعرت ذات يوم بالإنقباض والضيق في هذا القصر، ورأت حدائقه المتكلفة كئيبة باهتة الجمال، ولكنها الآن لا تتمنى شيئاً اكثر من ان تستمر في العيش هنا... ان تكون قريبة من اليكسيوس فازيلاس، ان تكون معه حين يخطط لمستقبل كافونيا.

وسمعت ماغارا تترك الغرفة، ولكنها لم تستدر في وقفتها.

ففي الخارج، كانت الشمس تغيب بكامل الروعة والجمال، ومع هذا فقد بدت في عيني ثيولا مظلمة. إنه ذلك الظلام الكامن في قلبها.

فكرت، وقد تملكها اليأس، في أنها تحبه... تحبه... ولكنها لن تعني بالنسبة إليه سوى... زوجة بالإسم فقط.

وكان التفكير في أنه قد يكون غارقاً في حب ابنة عمه الأميرة اثينا، والتي كانت ماغارا قد حدثتها عنها مرة، كان هذا التفكير بمثابة طعنة خنجر تصيب قلبها. ما شكلها تلك الأميرة؟ أهي جميلة جداً؟ هل من الممكن أن تكون مثله الأعلى في النساء، حيث أن ثيولا لن تكون كذلك أبداً؟

وراحت تتعذب وهي تتصور أن الأميرة ذات ملامح إغريقية مثل اليكسيوس فازيلاس نفسه.

بإمكانها أن تفهم كم كان سهلاً عليه أن يستبدلها في اذهان الناس بكاترين التي كان رئيس الوزراء قد اعلن عنها.

لكن في ثوب عرسها لا بد أنها أظهرت في اعين عامة الشعب كل حنينهم.

واخذت تفكر في أن كل ذلك لم يكن سوى مشهد مسرحي متقن. أما ما كانت تشعر به في اعماقها عند ذاك، وعندما كانت تدعو في الكهف للجنرال بالنصر، فيبدو ان كل ذلك قد بهت وتلاشى. إن ما يتملكها الآن هو شعور بالفتور والانكماش، شعور فتاة لا شأن لها... فتاة كانت زوجة خالها قد وصفتها بأنها (لا تميز عن الخادمة إلا قليلاً).

وتوارت الشمس وانتشر الشفق الشاعري بينما بدت الظلال مليئة بالأسرار.

ولكن ثيولا لم تكن ترى امامها سوى وجه اليكسيوس فازيلاس.

ما الذي كان يفكر فيه؟ ماذا كان شعوره؟ إنه سيبقى

www.relivity.com

دوماً، بالنسبة إليها، لغزاً غامضاً... رجلاً لن تفهمه أبداً. وسمعت قرعاً قوياً على الباب فاستدارت وقلبها يخفق خوفاً، وقد وجدت من الصعب عليها التكهن بمن عسى ان يجيء إليها.

تكلمت باللغة الكافونية، ففتح الباب ودخل الجنرال.

عند ذلك، وياللعجب، إذا بها ترى جنديين يتبعانه.

دخلا الغرفة ثم اتخذا وقفة الإنتباه كحارسين يؤديان واجبهما ولكن في داخل غرفة الجلوس بدلاً من الممر خارجها.

حدقت ثيولا فيهما وقد تملكها الحرج، ثم رفعت ناظريها إلى الجنرال متسائلة.

فتقدم الجنرال قليلاً نحوها ثم وقف جامداً في منتصف الغرفة وقد بدا على ملامحه تعبير لم تستطع فهمه. ثم قال لها بالانكليزية: «أريد ان اتحدث إليك.»

فأجابت: «لقد كنت... في انتظارك... ولكن لم هذان الجنديان هنا؟»

فقال: «لقد احضرتهما لكي تشعري بالأمان.»

فسألته بذهول: «الأمان؟ وممن؟»

فأجاب: «مني أنا.»

ولم تستطع أن تستوعب ما قاله، بينما تابع هو كلامه: «لقد أسأت استغلال ثقتك بي الليلة الماضية. ولهذا اريد ان اتأكد اليوم من عدم حدوث ذلك الأمر مرة أخرى.»

«أنا لا... أفهم.»

فأجاب: «بل اظنك تفهمين. أما ما سأقوله الآن فلن يستغرق وقتاً طويلاً.»

وفجأة، أدركت ما يعنيه.

كان يشير إلى أنه كان رقيقاً محباً معها قبل ان يغادر الكهف. وإذ شعرت لتصرفه هذا بمنتهى الحزن ما أوشكت معه على البكاء، قالت بسرعة: «اخرج هذين الجنديين. إنني لن اتحدث اليك ما داما في داخل الغرفة.»

ولكن الجنرال بقي على جموده وهو يسألها: «اترين من الحكمة ان تطلبي هذا؟» وإذ خشيت أن تكشف عيناها عما في نفسها، اشاحت بوجهها وسارت نحو النافذة.

وعادت تقول: «اخرجهما... من هنا.» وكان صوتها يرتجف وهي تتابع قائلة: «إني اعتبر وجودهما هو... إهانة لي.»

«لم اقصد ان يكون الأمر كذلك.»

وصرف الجنرال الجنديين، وسمعتهما ثيولا يخرجان.

أخذت تنظر إلى شفق الغروب في الخارج، شاعرة وكأن الحديقة الهادئة تتوارى بعيداً نحو المستقبل المجهول والذي كان يملؤها التفكير فيه بالرعب.

وسمعته يقول: «لقد جئت لأخبرك بانني علمت بان سفينة انكليزية راسية في ميناء كيفيا. وستكون ثمة عربة بانتظارك في خلال ساعة لكي تأخذك إليها.»

وشعرت ثيولا، للحظة، بأن الشلل قد تملكها وبأنها لن تستطيع الحركة مرة أخرى، ثم وببطء، استدارت تواجهه.

لم تكن قد رأته قط من قبل بمثل هذا التجهم والحزم.

فرددت قائلة: «سفينة؟»

«سفينة انكليزية، ربما كانت ذاهبة إلى أثينا، حيث

يمكنك الالتحاق بخالك وابنته، أما إذا كانت ذاهبة إلى انكلترا مباشرة، فستوصلك إلى منزلك بسلام.»

وشعرت ثيولا بأن من الصعب عليها أن تفهم هذا الذي تسمع.

كانت تعلم بأنه لا يهتم بها، ولكنها لم تستطع أن تصدق انه سيعمل على التخلص منها بظرف ساعة فقط.

وقفت تحدق فيه، وكما تمر جميع احداث حياة الشخص المشرف على الغرق، امام عينيه، هكذا رأت ثيولا المستقبل الذي ينتظرها في انكلترا. كآبة قصر خالها، حياة الخدمة الدائمة، وكل ذلك محاط على الدوام بجو من الكراهية والعداء. كان احتمالها لذلك من قبل، في غاية الصعوبة، أما الآن، وهي تترك قلبها خلفها في كافونيا، فقد اصبح ذلك بالغ الصعوبة.

كانت تتصور، بشكل غامض، بأنه سيكون من الصعب عليها أن تعيش مع حبها، عالمة بأن اليكسيوس فازيلاس لا يحبها. ولكن العيش في انكلترا بعيداً عنه، سيكون في منتهى الصعوبة وهي تعلم انها لن تراه بعد ذلك ابداً.

وسمعته يقول بصوت كأنه قادم من مسافة بعيدة: «يجب ان اشكرك لكل ما قمت به لأجل كافونيا. ولكنني واثق من انني على صواب في إعادتك إلى بلادك واهلك.»

فقالت بصوت متهدج: «كنت اظن... اننا... متزوجان.»

أجاب: «يمكنني التصرف بالنسبة إلى زواجنا صورياً، أما بالنسبة إلى الزواج الديني الرسمي فأنا واثق من اننا

سنستطيع فسخه وان كان سيتطلب بعض الوقت، وذلك بحجة انك اضطررت إلى الزواج دون سابق تفكير أو استعداد.»

فكرت وقد تملكها اليأس، في انه سبق وفكر في كل شيء.

وقالت: «أرجوك... دعني أبقى هنا.» وخيل إليها انه جمد في مكانه قبل أن يجيب قائلاً: «عليك أن تدركي ان ذلك غير ممكن.»

«ولكن لماذا؟ إنني لن... أسبب أي إزعاج. إنني لن اطلب منك... شيئاً، ولكن، ربما... بإمكاني ان اعمل بين افراد الشعب.»

قال بلهجة خشنة: «هذا ليس رأياً عملياً.»

فقالت بانفعال: «يمكنني، إلى أن يصبح لديكم مستشفى، ان اعتني بالمرضى، وخاصة الأولاد منهم.»

«الأفضل لك ان تعودي إلى الحياة التي اعتدتها. ذلك انه ليس لديك فكرة عن المصاعب والأخطار التي قد يحملها المستقبل لهذه البلاد.»

«إنني لست خائفة... فقد رافقتك إلى الجبال... الليلة الماضية.»

«كانت هذه شجاعة خارقة منك. ولكن ربما لن يكون الحظ حليفنا في المرة القادمة.»

فسألته: «المرة القادمة؟ وهل من المحتمل ان يعود الملك لمهاجمتنا مرة أخرى؟ ان لديك مدافعهم وانا لا استطيع ان اصدق ان جنوده القليلون الذين بقوا احياء يمكنهم الآن ان يشكلوا تهديداً لجيشك.»

فأجاب وكأنه يتكلم مرغماً: «لم أكن افكر في قوات الملك، ان هناك مصاعب أخرى.»

«اخبرني... عما هي.»

أجاب: «لا فائدة من هذا الحديث. هذا إلى أن الوقت يمر. ان عليك أن تحزمي متاعك كما ان الطريق إلى كيفيا يستغرق ساعتين.»

فقالت باكتئاب: «ولكن الوقت متأخر في الليل... لمثل هذا السفر البعيد.»

فقال: «سأرسل معك فصيلة من الجنود الفرسان وسيكون على رأسهم الميجور بيتلوس.»

فلم تجب ثيولا، وبعد لحظة، عاد هو يقول: «إنني ساودعك طبعاً قبل سفرك.» وتحول نحو الباب ليخرج فصرخت بضعف: «لا استطيع... الذهاب. ارجوك... دعني ابقى. ان بإمكاني ان... افعل الكثير... هنا.»

«كلا!»

وتردد صدى هذه الكلمة في انحاء الغرفة بخشونة وعنف.

«لقد قلت لك انني لن... اسبب أي ازعاج... لك. فأنا لن اطلب حتى ان اسكن في القصر، إذا لم تكن تريدني... ولكن دعني فقط أبقى في كافونيا.»

«كلا.»

وشعرت ثيولا وكأن سيطرتها على نفسها قد اخذت بالانهيار. وشعرت بالدموع تخنقها، ورأت اليكسيوس فازيلاس يسير نحو الباب فتملكها شعور وحشي بأنه سيخرج من حياتها. وسيخرج معه الضياء، ما سيجعلها تعيش في ظلام.

«أريد ان... اطلب منك... شيئاً.»

كان صوتها لا يكاد يتجاوز الهمس، حتى انها خافت ان لا يكون سمعها.

«وما هو؟»

ولم تستطع ان تصدق بأن ثمة سؤالاً يحتوي على كل هذا البرود والخشونة وعدم المبالاة كسؤاله هذا لها.

ولكنها اجابته قائلة: «لكي يكون لدي... شيء... احتفظ به كتذكرى... هل لك... ان تعطني صورتك؟»

خيل إليها لحظة، انه موشك على الرفض، كانت مساحة الغرفة باجمعها تفصل بينهما، وعندما التفت اليها كان من المستحيل، حيث ان عينيها كانتا مغرورقتين بالدموع، ان ترى التعبير الذي بدا على ملامحه.

وببطء شديد، خطوة خطوة، عاد متجهاً نحوها.

سألها: «لماذا تطلبين مني رسماً لصورتي؟» كان في صوته نبرة غريبة لم تكن فيه من قبل. ووقف على بعد خطوتين منها.

حاولت ان تنظر إليه، ولكن بدلاً من ذلك، رفعت وجهها إليه وهي تقول بصوت لم تكد تسمعه هي نفسها: «أرجوك... ارجوك.»

وعندما لم يتحرك، ظنت بأنه سينبذها وإذا به يتحرك فجأة، ويمسك بيدها وهو يقول: «تعالي.»

وتملكتها الدهشة وهي ترى نفسها تسير بجانبه.

خرجا متجاوزين الجنديين. كانا الآن يسيران بسرعة لم تكد معها تحتفظ بمجاراته في خطواته في ذلك الممر نحو السلم الرئيسي.

www.rewity.com

وصلا إلى الباب الأمامي، وعندما مر من خلاله وقف الجنود وقفة الانتباه.

هبط بها الدرجات إلى حيث كان ثمة عربة مفتوحة.

ساعدها على الصعود، ثم أمر السائق بالمسير، فانطلقت العربة بينما جلست ثيولا مستندة إلى الخلف وقد سادها الارتباك، ما الذي كان يحدث؟ لماذا يتصرف بهذا الشكل؟ وهل سيرسلها حقاً إلى السفينة كما هي دون ان تغير ملابسها، ودون أمتعة؟

أرادت أن تسأله عما يحدث، ولكن الدموع كانت تكاد تخنقها، وكل شيء يسبح امام عينيها.

كانت تعلم أنه برفضه طلبها هذا قد اوصد باب الأمل في وجهها، وفكرت في أنه ليس ثمة ما يمكنها عمله اكثر من ذلك.

فقد توسلت إليه أن يسمح لها بالبقاء، ففشلت. ها هو ذا يطردها الآن ولم يعد لديها ما تقوله أو تطلبه منه.

وقفت بهما العربة فجأة، فرأت ثيولا انهما يقفان خارج فيلا بيضاء.

كان يحيط بالفيلا اشجار السرو، وكانت تبدو في غاية الجمال بانعكاس حمرة الشفق عليها.

ركض خادم يفتح باب العربة لهما فخرج الجنرال منها، ثم أمسك بيد ثيولا يساعدها على النزول.

جرها إلى داخل المنزل لترى ردهة بيضاء الجدران ينيرها أضواء خافتة كانت تنبعث من مصابيح مرمرية.

جرها إلى غرفة الجلوس وما زال صامتاً، وكان للغرفة نوافذ مستطيلة تطل على حديقة.

وكان هناك أيضاً أضواء خافتة كما كانت الغرفة توحي بانطباع بالبرودة.

ولكن لم يكن لدى ثيولا وقت للنظر حولها، فقد كانت عيناها تستديران بالرغم عنها إلى الرجل الذي كان إلى جانبها.

وبعد لحظة، قالت: «لماذا... احضرتني إلى هنا... وأين نحن؟»

أرادت أن تقول له، إني احبك... احبك، لقد نسيت كل شيء حتى تعاستها، حتى خوفها من المستقبل.

وسألها: «لماذا طلبت مني ذلك؟»

وهمست: «لأنني أحبك... أرجوك... دعني أبقى في...

كافونيا.»

فسألها: «وهل ظننت حقاً أنني ساتمكن من رؤيتك ترحلين؟»

«ولكنك كنت... تطردني.»

«فعلت ذلك فقط لأنني خيبت ظنك بي.»

«لا... أفهم.»

فقال: «عندما تزوجتك كنت اعلم ان تجنبي من الاقتراب منك سيكون صعباً علي.»

فسألته غير مصدقة: «وهل كنت... تحبني حتى قبل... ان تتزوج؟»

فأجاب: «لقد احببتك منذ أول لحظة رأيتك فيها.»

«ولكنك نظرت إلي، في ذلك الحين، باحتقار.»

«كان ذلك فقط لأنني قرنتك مع أولئك الناس الذين كنت مصحبتهم، ولكن ذلك لم يمنعني من التفكير في انك اجمل فتاة رأيتها في حياتي.»

فصرخت: «هذا لا يمكن أن يكون... صحيحاً.» وتذكرت ما كان عليه مظهرها من حقارة وكآبة في ثوب السفر القبيح ذاك الذي كانت زوجة خالها قد اختارته لها.

وتابع اليكسيوس قوله: «لقد أدركت أثناء حملنا لتلك الطفلة المصابة، آنذاك، ان شيئاً غريباً قد حدث لي. لم يكن السبب هو جمالك فقط، ولكنه أيضاً ذلك الاتصال الفكري العميق الذي حدث بيننا، وعندما هربت من الجنود، كنت اعلم أنه لا بد لي من رؤيتك مرة أخرى.»

فسألته: «ألم تكن تتوقع... ان تجدني مختلفة عنهم... في القصر؟»

فأجاب: «لقد تملكني الذهول، ولكن سروري بذلك غطى على كل شعور آخر حتى البهجة من تمكننا في النهاية من القيام بثورة على النمساويين.»

«لم اظن قط... لم احلم قط بانك... قد تكون احببتني.»

«وها انت تعلمين ذلك الآن.»

كانت البلابل تشدو في الحديقة. ومن خلال النافذة، كانت ثيولا ترى القمر الذي كان يضيء الوادي في الليلة الماضية.

«هل تحبيني كثيراً؟»

فهمست: «ان حبي لك... لا تستطيع وصفه الكلمات، ولكنني... خائفة.»

«مم تخافين؟»

«من انني احلم... وانني سأستيقظ... فأرى انك غير موجود هنا.»

فقال يطمئنها: «اعدك بأن ذلك لن يحدث. انك زوجتي يا ثيولا، ولن يفرق بيننا سوى الموت.»

«وهل تحبني... حقاً؟»

فأجاب: «ان الكلمات لتعجز عن وصف مقدار حبي لك. فانت كل ما كنت تمنيته في حياتي دون أن اجده. انك المثل الأعلى الذي كان يحتل قلبي على الدوام، والذي كنت قد ابتدأت اعتقد بأنه ليس سوى تخيلات.»

قالت: «يجب ألاّ تقول مثل هذا الكلام. إن ذلك يجعلني اشعر كما شعرت عندما اخذ الجنود، بعد النصر، يهنئونني، والنساء يرمينني بالورود، وهو أنني لا استحق كل هذا.»

فقال: «بل تستحقين.»

«ما الذي يجعلك واثقاً من ذلك؟»

فأجاب: «لأننا تعارفنا ليس بالرؤيا فقط بل بقلوبنا، يا حبيبتي.»

«وكيف كان بإمكانك... ان... تطردني؟»

كان صوتها مازال ينضح بالألم بالرغم من ادراكها الآن انها اصبحت له.

قال: «لقد كنت اشعر بالخزي لتصرفي ذاك، فقد ظننت انني لا بد اثرت فيك صدمة واشمئزازاً، وكان الاصلاح الوحيد لخطئي ذاك هو إرسالك إلى موطنك.»

فابتدأت بالقول: «ليس لي... موطن... في انكلترا...»

وتذكرت وهي تتكلم انها لم تخبره بعد عن أبيها، وفي الواقع، كان هناك الكثير مما عليهما ان يقوله الواحد للآخر، والكثير من الايضاحات.

وقاطعها بقوله: «احبك إلى درجة لا استطيع وصفها، وإلى حد يجعلني لا استطيع ان افكر في واجباتي نحو كافونيا، وذلك في الوقت الذي افكر فيه بك.»

• • •

قال لها في اليوم التالي: «لشد ما تبدين جميلة في الصباح، يا حبيبتي.»

«هل... ستتركني؟»

وكان سؤالها هذا مشحوناً بالضيق والإنزعاج.

«عليّ ان اذهب إلى العمل، يا غاليتي، هذا ما يقوله الرجال في مثل هذه اللحظة، وذلك في جميع انحاء العالم.»

«ولماذا لم توقظني عندما... نهضت؟»

«لقد كنت نائمة. كم أريد أن ابقى معك. ولكن إذا لم اتركك الآن فإن الشعب سيظن ان حاكمهم الجديد هو رجل كسول.»

وسكت برهة ثم تابع يقول: «لو كان الأمر لي، لبقيت هنا طوال اليوم. ولكن، يجب عليّ ان اختار حكومة جديدة واعين كثيراً من الرجال في مواقع المسؤولية.» وأشاح عنها مرغماً.

ثم عاد واقترب قائلاً: ويا ليتك تعلمين ما اشعر به من أسف لتركي لك، ولكن حالما أوجد نوعاً من النظام في البلاد، فسنذهب في رحلة طويلة. أريد أن آخذك إلى كوخي في الجبال حيث كنت اعيش طوال السنوات الماضية. إنه مكان بدائي تماماً.»

فهتفت: «وهذا ما أحبه... أريد أن اكون معك. هل يمكننا حقاً أن نذهب إلى هناك.»

«حالما يمكنني ذلك، يا زوجتي الصغيرة.»

واتجه نحو الباب، فسألته: «متى سأراك؟»

أجاب: «عند الغداء. حتى اكثر الرجال انشغالاً لا بد له من فترة يرتاح فيها في وسط النهار.» وابتسم، ثم غادر البيت.

تنهدت ثيولا بسعادة بالغة، ثم أدارت وجهها نحو النافذة.

وكانت قد علمت أثناء الليل أين هما بالضبط. فقد كانت هذه الفيلا ملكاً لأسرة نيشياس بيتلوس. وعندما نفى اليكسيوس وأمه من البلاد، جمعت هذه الأسرة كل نفائس أسرة فازيلاس واختزنته في منزلها هذا.

وكان والد نيشياس بيتلوس قد انقذ حياة الملك فرديناند عند بداية قدومه إلى كافونيا، وذلك عندما ألقى احد المتمردين قنبلة على عربته، فتلقفها الكولونيل بيتلوس وألقى بها في الطريق قبل ان تنفجر.

وكان الملك فرديناند شاكراً له هذا إلى درجة كبيرة. وعندما طرد من القصر كل الضباط والموظفين الكبار من الكافونيين، بقي الكولونيل بيتلوس وابنه متمتعين بامتيازات كانت ممنوعة عن غيرهم من الكافونيين.

وعلى كل حال، فقد دب الذعر في أسرة بيتلوس من تصرفات الملك عندما امتلك الحكم، وبعد عدة سنوات، استقال الكولونيل بيتلوس معتذراً بكبر السن، ولكن ابنه بقي في مكتب القصر بناء على إصرار من اليكسيوس فازيلاس، الذي كان قد عاد إلى البلاد سراً، والذي كان

يرى ان بقاءه في القصر هو افضل طريقة لمساعدة كافونيا.

لقد قال اليكسيوس لثيولا: «غداً سأريك الكثير من نفائس أسرتي والتي توارثتها على مدى اجيال.»

«لشد ما أحب رؤيتها.»

«لولا شهامة اصدقائي لدمرت بأجمعها.»

سألته: «هل ستكافىء الميجور بيتلوس؟»

فقال: «أنوي ان اسلمه مهمة تدريب الجيش. صحيح انه صغير السن بالنسبة إلى هذا المركز الهام، ولكنني اعلم أن بإمكاني الإتكال عليه، ومع انني أرجو ألاّ تتعرض كافونيا إلى حرب أخرى بعد الآن، فإن علينا ان نبقى دوماً قادرين على الدفاع عن انفسنا.»

فقالت: «لا يمكنني احتمال... فكرة تعرضك... مرة أخرى... إلى الخطر.»

فأجاب: «الخطر الوحيد حالياً هو أنني ساحبك إلى درجة تشعرك بالملل مني.»

فهمست: «هذا لن يحدث أبداً، كل ما اريده هو أن... اكون معك.»

قال: «سنكون معاً كل يوم.»

«هنا؟»

«نعم، فهنا سيكون بيتنا.»

فسألته: «الهذا السبب احضرتني إلى هنا هذه الليلة؟ لم استطع أن افهم السبب الذي جعلك تحضرني من القصر.»

فقال: «اتظنين انه كان بإمكاني ان اعيش معك في ذلك

المكان الذي شيد بدموع واحزان شعبي؟ انني مصمم على ألاّ نسكن هناك أبداً.»

«وأنا افضل كثيراً البقاء... هنا.»

فقال: «لقد وضع آل بيتلوس هذا المنزل تحت تصرفي إلى ان استطيع بناء منزل لنفسي، أو ربما من الأفضل أن اشتريه منهم.»

سألته ثيولا: «متى سيتم تتويجك ملكاً؟» وكان صوتها، وهي تلقي بهذا السؤال، يشوبه القلق. فقد كانت فكرة ان يصبح اليكسيوس بهذا المركز الرفيع، كانت تشعرها بالخوف.

«لن يحدث هذا.»

«لن يحدث؟»

«كلا. فأنا أظن ان كافونيا قاست ما فيه الكفاية من قسوة الملوك. إننا سنصبح جمهورية مستقلة.»

«ولكن... ماذا ستصبح انت؟»

«سأصبح الرئيس. وسأكون ديموقراطياً إلى أقصى حد، وهذا، كما اظن، هو المرغوب فيه في العالم هذه الأيام.»

وسكت لحظة، ثم عاد يقول: «أتحزنين من ألا تصبحي ملكة يا عزيزتي؟»

«أريد فقط ان اكون... زوجتك.»

«كما انت الآن، وكما ستبقين دوماً.»

سألته: «ماذا ستفعل بالقصر؟»

أجاب: «سنحول جناحاً منه إلى مستشفى إلى أن يصبح بإمكاني بناء مستشفى. أما الجناح الآخر فسيتحول إلى

مكاتب. وأما القسم المركزي منه فسنخصصه لاستقبال الضيوف القادمين من البلاد الأخرى وكذلك للاحتفال بالمناسبات المختلفة.»

وفي الصباح بينما كانت جالسة في غرفتها تفكر. سمعت قرعاً على الباب، ثم دخلت ماغارا وهي تسألها: «هل انت مستيقظة، يا سيدتي؟»

فابتسمت ثيولا: «إنني مستيقظة، يا ماغارا، وفي منتهى السعادة.»

«هذا ما فكرت فيه، يا سيدتي، حين علمت أن الجنرال قد احضرك إلى هنا.»

فقالت ثيولا وهي تنظر حولها في الغرفة: «المكان هنا جميل جداً ومختلف تماماً عن القصر.»

كانت الغرفة بيضاء تماماً، وكذلك كان السرير. ولم يكن فوقه كلة سميكة مثل أسرّة القصر، ولكن بدلاً من صور فرس البحر المحفورة على الخشب من ناحية الرأس، كانت هناك زخارف فضية.

كانت ثيولا واثقة من ان ذلك كان من صنع محلي، إذ كانت الأبسطة التي تغطي أرضية الغرفة بيضاء اللون هي الأخرى ومزينة بصور ملونة كانت قد رأت مثلها في صور إغريقية قديمة.

أما الستائر فكانت محاكة باليد وبالوان متألقة. وكانت الغرف تبدو منسجمة مع الحديقة المليئة بالأزهار والتي كانت تبدو من خلال النوافذ المفتوحة.

وكان شذا الورود والزنابق يفعم الجو. وبينما كانت ثيولا ترتدي ثيابها، كانت ماغارا تخبرها بانها قد أعدت

لها طعام الافطار على الشرفة التي تنفذ إلى غرفة الجلوس.

وقالت ثيولا: «أرجو ان تكوني قد أحضرت الي ثوباً لأرتديه.»

فأجابت ماغارا: «احضرت لك احد اجمل اثوابك يا سيدتي. وسأحضر لك بقية ملابسك فيما بعد. إذ لم يكن لدي وقت، هذا الصباح، لاطلب عربة.»

«ما اشد سروري بالعيش هنا.»

فأجابت المرأة: «إنه صغير جداً بالنسبة إلى القصر. ولكن من السهل إدارته، كما ان الخدم سيسرهم جداً ان يخدموك.»

وشعرت ثيولا وهي تجلس في الشرفة تحت المظلة، بان ما من سعادة تفوق سعادتها.

كان كل ما تريده هو أن تكون مع اليكسيوس، ان تعتني به، ان تعلم أن الواحد منهما للآخر وانها لم تعد وحيدة بعد الآن.

فكرت في أن عليها ان تساعده في كل السبل، فإن ثمة الكثير مما تستطيع عمله لأجل نساء كافونيا وللأطفال أيضاً.

وفكرت في أنه حالما يسمح لها اليكسيوس، فستخرج لزيارة تلك الطفلة الصغيرة التي كانت اصيبت في ساقها، كما أنها ستسأل عما حدث للأطفال الذين كانوا في القصر.

كانت واثقة من ان امهاتهم لا بد جئن لأخذهم ولكن عليها ان تعلم ما إذا كانت جروحهم قد شفيت أم انها مازالت بحاجة إلى رعاية طبية.

وفكرت تقول: لا بد ان اكون مسؤولة عن كل هذه الأمور، فإن اليكسيوس سيكون مشغولاً جداً بأمور اكثر اهمية بحيث يجب ألاّ يهتم بأمور اقل اهمية.

وعندما أنهت طعامها، أخذت تتمشى في الحديقة التي وجدتها أجمل كثيراً من حدائق القصر المتكلفة.

كانت هناك زهور الأضاليا بالوانها المتألقة، والزنابق، وزهور الأوركيد من كل حجم ولون، والكثير منها قد نبت وحشياً.

وكانت هناك حديقة مائية تحتوي على شلال صغير ينحدر فوق صخور اصطناعية وفي حوض النافورة كانت هناك سمكات ذهبية تسبح تحت أوراق الزنابق المائية الخضراء.

وشعرت بأنها أمضت وقتاً طويلاً في التجوال في الحديقة.

لقد انتصف النهار تقريباً، ولا بد ان عودة اليكسيوس بات قريباً.

ماذا لو انها كانت أرغمت على طاعته، وبدلاً من ان تكون هنا الآن، كانت على ظهر سفينة انكليزية مبحرة إلى أثينا لتجد خالها وابنته كاترين في انتظارها؟

وارتجفت لهذه الفكرة، ولكنها ما لبثت ان حدثت نفسها بأنه لم يعد هناك ما تخافه. لن يكون أبداً ما تخافه بعد الآن، فهي زوجة اليكسيوس.

وعادت إلى غرفة الجلوس البيضاء ذات الجو البارد المنعش.

كانت هناك صور على الجدران لم تكن قد وجدت بعد

فرصة للتأمل فيها... ولكنها كانت تعلم انها لا بد ان تكون جميلة جداً لأنها كانت لأسرة اليكسيوس.

وقررت ان تتفحص جيداً واحدة منها، وحين اتجهت نحوها، إذا بالباب يفتح، واحد الخدم يقول باللغة الكافونية: «هنا سيد يريد ان يراك، يا سيدتي.»

فاستدارت ثيولا، ثم جمدت في مكانها، كان القادم هو خالها سبتيموس وقد تبعته كاترين.

www.rewity.com

الفصل السابع

وقفت ثيولا في مكانها جامدة لا تتحرك.

فقال خالها: «آه، أهذا أنت، يا ثيولا؟»

فقالت ثيولا بصوت متهدج: «لم أتوقع رؤيتك... يا خالي.»

بدا لها مسيطراً، ما جعلها تشعر مرة أخرى بقوة كراهيته لها والتي يبدو أنها كانت تنبعث منه كذبذبات شريرة.

فقال خالها: «هذا صحيح... ولكنني الآن في طريقي إلى انكلترا وقد جئنا، أنا وكاترين، لأخذك.»

فهتفت: «لأخذي؟»

فقال: «نعم، فنحن متجهان الآن إلى ميناء كيفا حيث هناك سفينة انكليزية ستأخذنا آمنين. هيا اسرعي واستعدي. ليس لدينا وقت نضيعه.»

كانت كاترين قد دخلت خلفه، فأخذت تنظر حولها، وإلى هذه اللحظة لم تكن قد ألقت نظرة على ثيولا.

وصرخت الآن تقول: «هذا ثوبي ترتدينه. كيف تجرؤين على ارتداء ثيابي؟ اخلعيه حالاً. هل تسمعين؟»

وتقدمت نحو ثيولا التي كانت، على كل حال، تنظر إلى خالها وهي تقول: «إن... إن لدي ما أقوله لك... يا خالي.»

فسألها بحدة: «وما هو؟»

«إني... إني متزوجة.»

وكانت دهشته لا تحد.

حدق إليها وكأنه لا يصدق أذنيه، ثم سألها: «متزوجة من؟ وكيف تزوجت في هذا الوقت القصير الذي تركناك فيه؟»

«إنني زوجة... الجنرال فازيلاس.»

وبدا للحظة وكأن خالها لم يستطع أن يستوعب ما قالته. ثم انطلق صوته في أنحاء الغرفة هادراً: «فازيلاس؟ المتمرد؟ الرجل الذي طرد الملك وأغرق البلاد بالدم؟ لا بد أنك جننت.»

فلم تجب ثيولا، كانت ترتجف فقط وقد استقرت عيناها على وجه خالها.

وقال بحقد: «أظنه أرغمك على ذلك، رغم استغرابي لعرضه الزواج عليك. وعلى كل حال، فالزواج غير قانوني، فأنت تعلمين أنك في سنك هذا لا يمكنك الزواج من دون إذن الوصي عليك. وهذا كما سبق وقلت لك من قبل، لن أمنحك إياه مطلقاً. هيا استعدي ودعي الامر لي. إننا سنغادر إلى انكلترا فوراً.»

«إني... إني لا أستطيع... الذهاب معك.»

وكان صوتها يرتجف رغم أنها حاولت أن تتكلم بشجاعة.

فقال خالها: «بل ستفعلين ما أقوله لك. إلا إذا كنت تريدينني أن أستعمل معك طريقة أخرى لارغامك على ذلك.»

وعادت كاترين تصرخ: «إنها مرتدية ثوبي، يا أبي. وكذلك تستعمل أشيائي. عاقبها، فليس لها الحق في ذلك.»

فأجاب: «ستنال ثيولا عقابها عندما نرحل من هنا،

www.rewity.com

إفهمي هذا. كما أننا إذا أردنا أن نصل إلى كييفا، فعلينا أن نغادر حالاً.» وأخرج ساعته ينظر فيها ثم تابع قائلاً: «أمامك عشرون دقيقة للاستعداد.»

فتدخلت كاترين قائلة: «وكذلك أريدك أن تحزمي أمتعتي أيضاً، جميعها. ولا تنس يا أبي أن إكليل أمي الماسي ما زال هنا.»

فأجاب: «لم أنس هذا.»

وأعاد ساعته إلى جيبه، وإذا به يرى ثيولا لم تتحرك. فسألها: «هل ترفضين القيام بما أطلبه منك، يا ثيولا؟»

كان يتكلم بهدوء بالغ، فأدركت أن وراء هذا الهدوء المصطنع يكمن الغضب.

«إنني... إنني يجب أن أبقى مع... زوجي.»

وإذ كانت ترتجف، فقد خرجت الكلمات من فمها مهتزة.

ورفع يده، فتجمعت لتلقي إحدى صفعاته على جانب وجهها والتي طالما تلقتها منه من قبل.

وفي هذه اللحظة، فتح الباب.

دخل الميجور بيتلوس، فأنزل سبتيموس ذراعه وقال الميجور بلطف بالغ: «ما أجمل أن أراك يا سيدي مرة أخرى.»

فسأل: «هذا بيتلوس. أليس كذلك؟»

«نعم، يا سيد سبتيموس. لعلك تذكر أنني كنت مسافراً معكم في السفينة التي كانت أحضرتكم إلى كييفا.»

فقال سبتيموس بجفاء: «أذكر ذلك. رغم أني لا أفهم سبب بقائك هنا.»

فأجاب الميجور بيتلوس: «كل شيء سيتضح إذا

رافقتماني، سيادتك وسيادة اللايدي كاترين، إلى القصر. إن لدي عربة في الخارج.»

فأجاب: «ولدينا عربتنا.»

فقال الميجور بيتلوس: «إنكما، طبعاً، في طريقكما إلى كييفا، كما أعتقد.»

فأجاب: «هذا صحيح.»

فقال الميجور بيتلوس وفي صوته نبرة مسيطرة: «فهل لسيادتك أن تأتي معي إذن؟»

فقال: «أظن الوقت لا يكاد يكفي.»

ونظر مرة أخرى إلى ثيولا وقال: «وأنت إفعلي ما قلته لك. فإذا لم تكوني عند رجوعنا، على استعداد، فتوقعي مني أسوأ الامور.»

وشرع باللحاق بالميجور بيتلوس، ولكن كاترين استدارت إليها قائلة: «إخلعي ثوبي حالاً. كيف تجرؤين على سرقة ملابسي؟»

وسكتت، ثم عادت تقول ونبرة من الحقد الهائل في صوتها: «اعلمي بأنني سأطلب من أمي أيضاً عقابك وليس من أبي فقط، وسيكون عقابك أليماً لتصرفك هذا.»

واندفعت خارجة من الغرفة دون أن تنتظر جواب ثيولا. وما أن اختفى أثرها بثوب ركوبها الاصفر، حتى رفعت ثيولا يديها إلى عينيها.

كيف كان لها أن تتصور لحظة أن سعادتها يمكن أن تدوم، وأن بإمكانها أن تبقى في كافونيا زوجة لأليكسيوس؟

كان عليها أن تعلم أن هذا الزواج لم يكن سوى بهجة زائلة.

وها هي ذي الآن عليها أن تواجه الواقع، وهي تعلم جيداً نوع عقاب خالها لها لما يراه سوء تصرف منها.

فكم عانت من قبل من مذلة وعذاب وهو يجلدها بسوطه، ولكنها الآن ترى أنها لم تعد تحتمل ذلك لا لشيء إلا لأنها ذاقت طعم السعادة الحقيقية.

ولكن أسوأ من تلقيها للعقاب، أسوأ من التعاسة والظلام الذي ينتظرها في انكلترا، كان التفكير في أنها ستفارق اليكسيوس.

توقعت أيضاً أنه سيغتنم الفرصة فيخبر أليكسيوس عن أبيها وأمها وذلك لكي يحمله على الاعتقاد بأنها ليست الزوجة المناسبة لأي رجل.

فقد كانت تعلم مقدار قسوة خالها عندما يريد أن يحقق هدفاً له.

ومع أنها كانت تعتقد أن أليكسيوس سيقف إلى جانبها، فلن يكون في استطاعته الوقوف ضد ما يمكن أن يمارسه خالها في انكلترا من سلطة ونفوذ.

لقد كانت واثقة من أنه لن يتردد في استخدام أي سلاح لديه في الاضرار بها.

كان كل ذلك نتيجة حقد شخصي، ذلك أنه لم ينسَ قط ما كانت أخته قد جلبت من عار، حسب رأيه إلى شرف الاسرة.

وكانت ثيولا تشعر أنها، في كل مرة ينظر فيها إليها، كانت تثير في نفسه الرغبة في الانتقام مما كان يعتبره غدراً من أبيها.

وهتفت في أعماقها: آه، يا أبي... أبي يا ليتك كنت موجوداً لتنقذني.

وإذ أدركت أن الوقت يمر بسرعة، ذهبت إلى غرفة النوم تبحث عن ماغارا. ولكنها عادت فتذكرت أن الخادمة هي الآن في القصر.

فتحت الخزانة فلم تجد فيها سوى الثوب الوردي الذي كانت ارتدته في الليلة الماضية وروب كاترين الابيض ذي الكمين الواسعين.

لقد كانت واثقة من أن خالها، حيث أنه الآن في القصر، لا بد طلب إعداد حقائب كاترين، وأن هذا ما كانت ماغارا تقوم به حالياً. وعندما يصبح كل شيء جاهزاً للسفر، ستحضر إليها دون شك، ثيابها التافهة الكئيبة اللون والطراز والتي كانت زوجة خالها قد اختارتها لها لترتديها بصفتها وصيفة لابنتها.

وكانت ثيولا ترى أن هذه الثياب ترمز إلى البشاعة والقسوة اللتين لم يبق لها سواهما بقية حياتها.

ذلك أنه إذا كانت أمها قد أثارت اشمئزاز خالها بزواجها من أبيها، فقد فعلت ثيولا الشيء نفسه.

إذ أنها، بزواجها دون إذن منه، قد اقترفت، هي أيضاً في عينيه، الجريمة النكراء التي تستحق لأجلها الشتائم والاهانات يومياً بقية حياتها.

وقالت تحدث نفسها بصوت عال: لا أستطيع احتمال ذلك.

ذلك أن لا معنى لمتابعة الحياة من دون أليكسيوس.

وتذكرت الليلة قبل الماضية عندما أعطاها أليكسيوس

المسدس في الكهف، وما كانت فكرت فيه من أنه إذا قتل فعليها أن تموت معه هي أيضاً.

لقد كانت واثقة، رغم أنه لم يقل ذلك صراحة، أن ذلك ما كان يفكر فيه لأنه كان يعلم جيداً ما سيكون مصيرها فيما لو انتصرت قوات الملك.

وأخذت ثيولا تفكر الآن في أن عليها أن تموت لأن الحياة، لم يعد لها فائدة.

ذلك أنها لا تستطيع أن تتصور العقاب الذي ستناله على يدي خالها.

وأخذت تهمس لنفسها، إني... جبانة. جبانة.

كان السكون يسود الغرفة حيث كانت، ولكن اضطرابها النفسي جعلها تبدو وكأن ضوضاء أسلحة حربية تملأ جوها.

شعرت وكأن ذلك يمزقها أشتاتاً.

كان قسم من عقلها يحدثها بأن عليها أن تعيش مهما كان عليها أن تتألم أو تصبر، والقسم الثاني يحدثها بأن الموت هو النهاية المفضلة لحياة مليئة بالتعاسة والاذلال.

ونهضت تقرع الجرس، وبدا أن وقتاً طويلاً قد مر قبل أن تسمع طرقاً على الباب.

«هل قرعت الجرس، يا سيدتي؟»

كان هذا دينوس الخادم الكبير السن الذي كان قد سبق وأحضر لها طعام الافطار إلى الشرفة.

فأجابت: «نعم، أريدك أن تحضر لي... مسدساً.»

«مسدس، يا سيدتي؟»

«لا بد أن يكون ثمة واحد في هذه الفيلا.»

«أنا لست واثقاً، يا سيدتي. ولكنني سأبحث.»

«شكراً لك يا دينوس.»

ورأت الدهشة في وجهه، ولكنه كان من التهذيب بحيث لم يكن ليناقش أمراً وجه إليه.

غادر الغرفة، ومرة أخرى عادت ثيولا تنتظر وهي تتساءل عما إذا كان بإمكانها أن تقول لأليكسيوس وداعاً.

ربما عندما يشي بها خالها لأليكسيوس مخبراً إياه بالحقيقة عن ماضي أمها، سيشعر بأن من الأفضل له أن يتخلص منها.

كان التفكير في حبهما الذي لن يعود، يغرق نفسها بالعذاب.

وصرخت من أعماق قلبها: «إني أحبه... آه، لشد ما أحبه.»

وطرق الباب وظهر دينوس حاملاً في يده مسدساً، وهو يقول: «هذا هو الوحيد الذي وجدته.»

فأجابت: «هذا يكفي. شكراً.»

أخذته منه وهي تراه قديم الطراز وأثقل بكثير من ذلك الذي كان أليكسيوس قد أعطاه لها في الكهف. وقال دينوس: «هل هنالك شيء آخر، يا سيدتي؟»

«ليس الآن. شكراً.»

غادر دينوس الغرفة بينما جلست ثيولا ممسكة المسدس في يدها.

إنها تشعر الآن ببرودة المعدن على أصابعها، وأخذت

تتساءل عما إذا كان لديها الشجاعة لإطلاق رصاصة منه على نفسها.

لقد كانت رأت صورة مرة لرجل يحاول الانتحار، وذلك بتصويب فوهة المسدس إلى جبينه.

ولكنها فكرت في أنها لن تحتمل أن يتهشم وجهها، مما يجعل آخر انطباع لأليكسيوس عنها هو الدمامة.

وقالت لنفسها، إذا أنا صوبته إلى قلبي فسأموت...

وألقت نظرة على الساعة، ورأت أنه قد مضت على مغادرة خالها عشرون دقيقة.

ولكنها أدركت أن من الصعب على ماغارا أن تكون قد حزمت كل أمتعة كاترين في هذا الوقت القصير.

حتى ولو ساعدتها في ذلك خادمات القصر، فسيأخذ حزم تلك الثياب الجميلة ضعفي هذا الوقت. كما أن هناك أيضاً الاحذية وحقائب اليد والمظلات والقبعات وغير ذلك مما يملأ صناديق عديدة كانت قد ملأت قمرة خاصة بها في السفينة.

وساءلت ثيولا نفسها: ما الذي أنتظره؟ عندما يعودان لأخذي، وكنت أنا ما أزال حية، فسيمنعاني من... قتل نفسي.

وعادت تنظر إلى المسدس وقد أدركت أن ما تنوي القيام به هو خطيئة.

كما أدركت أنه عمل جبان سيجعل أليكسيوس، الذي كان قد وصفها بالشجاعة، سيجعله يحتقرها لضعفها هذا. عند ذلك تدفقت الدموع من عينيها.

وخيل إليها أنها تسمع صوت شخص قادم، فأمسكت المسدس بيدها بسرعة.

وسمعت صوت الباب يفتح، فأغمضت عينيها وحاولت جذب زناد المسدس، ولكنه استعصى عليها أكثر مما توقعت.

وسمعت صرخة مفاجئة بينما يد قوية تنتزع المسدس من يدها. وصرخ أليكسيوس بها:

«ما الذي تفعلينه؟ ما الذي تقومين به؟»

فشهقت ثيولا، ثم انفجرت باكية وهي تقول وشهقاتها تتوالى: «إنهما... سيأخذانني... معهما. إن علي أن.. أتركك. لا... فائدة. دعني أموت. لا يمكنني أن أعيش... من دونك ودون... حبنا.»

كانت كلماتها متنافرة تقريباً. ثم سمعته يقول بصوت عميق قد ملأه التأثر: «كيف تكونين بهذه الحماقة؟ هل تصورت حقاً أنني سأدعك ترحلين، يا زوجتي؟»

«لقد قال خالي... ان زواجنا... غير قانوني... لأنه لم يمنحنا... موافقته.»

قال: «لقد أعطى خالك الإذن بالزواج.»

فتملكت الدهشة ثيولا، وحملقت فيه وقد اختفت الدموع من عينيها، وهمست: «هل هذا... صحيح؟»

فقال: «صحيح تماماً. ولكن كيف يمكنك أن تفكري في الاقدام على عمل آثم... قاس بهذا الشكل... فتقتلي نفسك بينما تعلمين أنك لي؟»

فقالت متعلثمة: «ظننت أنك... لم تعد تريدني.»

فقال بعنف: «كيف تجرؤين على الشك في حبي؟ هل تريدين أن تعرفي ما حدث، يا زوجتي؟»

وقبل أن تجيبه، هتف قائلاً: «لماذا بدّلت ثوبك؟ لماذا ترتدين هذا الثوب؟»

www.rewity.com

فقالت: «أمرتني... كاترين بأن أخلع كل... ثيابها التي أرتديها.»

كان من الصعب عليها أن تتكلم أو أن تتذكر شيئاً عدا ما قاله من أنه لن يتركها.

نظر إليها باسماً، فعادت تقول: «أرجوك أن تخبرني عما حدث.»

فقال آمراً: «أخبريني أولاً أنك تحبينني.»

«إنني أحبك بشكل... ساحق قاهر... جعلني... أرفض العودة إلى انكلترا مع... خالي.»

«هذا شيء لن يحدث أبداً، كما أننا، أنا وأنت، لن نقع أعيننا عليه مرة أخرى.»

«وهل... رحل؟»

«إنه في طريقه إلى كييفا.»

كان في صوته نبرة سرور وهو يقول هذا، فقالت: «أخبرني... أخبرني كيف استطعت ذلك.»

فأجاب: «كل ذلك كان بفضل الميجور بيتلوس. فقد علم أن خالك وابنته قد جاءا وهما يسألان عنك. وعندما أرشدوهما إليك في الفيلا، أخبرني بيتلوس عن تصرفات خالك وعن معاملته لك في السفينة. لو كنت حاكماً قليل الخبرة لألقيت به في زنزانة وأذقته نوع معاملته لك.»

فسألته: «وماذا فعلت إذن؟»

«جهزت، بالاشتراك مع بيتلوس، الذي أخبرني أن خالك شخص متعجرف مستبد لا يحترم إلا مظاهر الفخامة والسلطة، جهزت مشهداً خاصاً للتأثير عليه.»

«ما الذي... فعلته؟»

«جعله بيتلوس ينتظر في غرفة الجلوس. وعندما أصبحت جاهزاً، قال لخالك ولكاترين: إن الامير أليكسيوس حاكم كافونيا سيسمح لسيادتكما برؤيته الآن.»

وأطلق أليكسيوس ضحكة قصيرة، ثم تابع يقول: «قال بيتلوس إن خالك أجفل لدى سماعه هذا، ولكن قبل أن يجد وقتاً يتمالك فيه نفسه، قاده، مع اللايدي كاترين، إلى غرفة جلوس الملك.»

«وكيف كنت... تنتظرهما؟»

فأجاب: «كنت أنتظرهما وقد غطيت صدري بالاوسمة، وأكثرها أوسمة أبي، وأظن بعضاً منها قد خلفها الملك وراءه.» وقهقه ضاحكاً ثم تابع قائلاً: «أؤكد لك أن منظري بدا في غاية الاهمية وقد وضعت على صدري كل ما وجدته من أوشحة وأوسمة. ثم أعلن بيتلوس حضورهما بقوله: «السيد سبتيموس بورن، ومعه اللايدي كاترين بورن.»

«وكنت أنا أوقع بعض الاوراق، فتعمدت أن أدعهما ينتظران عدة ثوان قبل أن أنهض لتحيتهما، وكان عليهما أن يجتازا الغرفة الفسيحة قبل أن يصلا إلى مكتبي.»

وتذكرت ثيولا مبلغ ما بدت عليه غرفة جلوس الملك تلك من هيبة وفخامة رائعتين عندما رأتها ليلة اندلاع الثورة.

سألته: «ماذا حدث... عند ذاك؟»

«لقد سألني خالك بصوت مختلف جداً عما أظنه كان ينوي

مخاطبتي به، سألني عما إذا كان ما قلته أنت له صحيحاً، وأننا عقدنا نوعاً من الزواج الصوري. فقلت له: إنه ليس زواجاً صورياً، يا سيد سبتيموس، وإنما تزوجنا رسمياً. فقال خالك إن الزواج غير قانوني من دون ترخيص منه، فأجبته أنه كان من المستحيل الحصول على هذا الترخيص بالنسبة للأحداث. فسكت قليلاً، ثم قال: إنك تدعو نفسك أميراً، فهل لي أن أسألك عما إذا كنت ورثت هذا اللقب حقاً؟ فنظرت إليه وكانني اعتبرت ذلك السؤال إهانة لي، فقال بسرعة، لقد كنت أتساءل في الواقع، عما إذا كنت من أقارب الملك الكسندر الخامس ملك كافونيا والذي أعلم أنه من أسرة فازيلاس.

فقلت له: أرى أن سيادتك مطلع على تاريخنا. إن الملك الكسندر الخامس هو أبي والملك الكسندر الرابع هو جدي.

فأجابني خالك صائحاً، لم يكن لدي فكرة عن ذلك... لم تكن لدي فكرة أبداً. فقلت بحدة، وهكذا ترى أنني كنت على حق في استلام كافونيا وتخليص بلادي من الاجانب الذين أخذوا مكاني لمدة اثنتي عشرة سنة.»

فتمتمت ثيولا: «لا بد أن خالي... قد ذهل.»

أجاب: «لقد بقي لحظة... مصعوقاً لا يتكلم، ثم قال، إنك لا تعلم الحقيقة عن ابنة أختي. إنني أعتبر من واجبي أن أخبرك بأنها غير مناسبة لأن تكون زوجة لأي رجل.»

فصرخت ثيولا بذعر، وقالت: «لقد كنت أنوي... أن

أخبرك... إني أقسم على ذلك... ولكن... لم يسمح لي الوقت.»

فقال بعدم اكتراث: «ليس هذا مهما.»

فحدقت فيه وكأنها لا تصدق ما سمعت. فقال: «طبعاً هذا ليس مهما. وفي الواقع عندما أخبرني خالك بما كان حدث منذ وقت طويل، قلت له، إنه من المؤسف ألاّ يكون والدك حياً، وإلا لطلبت منه المساعدة في إنشاء جامعة في كافونيا.»

فقالت: «ألا يهمك أن... لا يكون أبي من طبقة النبلاء؟»

فابتسم لها قائلاً: «وكيف لي ألاّ أعجب بابيك وأقدره، يا زوجتي العزيزة؟»

فتنهدت ثيولا من الاعماق بينما تابع هو يقول: «لقد صعق خالك إلى درجة لم يستطع معها أن يتكلم، فاغتنمت الفرصة وقلت لابنة خالك، هل لي أن أفهم، يا لايدي كاترين، أنك لا تنوين الزواج من الملك فرديناند؟ فأجابت بأن ملكاً من دون عرش ولا يجد مكانا يأويه هو ليس بالمطمع. فقلت لها، كلا طبعاً، معك حق. فتابعت تقول، ولهذا أنا عائدة إلى انكلترا ولكنني أريد أن أستعيد الاكليل الماسي الذي هو لأمي وملابسي التي هي جهازي، فقلت لها إن أول طلب لك هو سهل تماماً، يا لايدي كاترين.»

ثم ناديت أحد الضباط فأحضر لي الاكليل في صندوقه المخملي والذي كان محفوظاً بأمان في غرفة الملابس. فهتفت اللايدي كاترين، كم أنا مسرورة باستعادته.»

فقالت ثيولا: «أنا واثقة من أنها كانت تظن أنه لا بد سرق.»

فابتسم أليكسيوس قائلاً: «إننا لا نسرق شيئاً في كافونيا ما عدا القلوب.»

فهمست: «وقد سرقت... قلبي.»

فأخذ يحدق في عينيها، فقالت بجهد: «حدثني عن... البقية.»

«بعد ذلك أخذت في مساومة خالك.»

فهتفت ثيولا بدهشة: «مساومته؟»

فقال: «بالنسبة إلى ملابسك، يا غاليتي. إنني أحبك كما أنت الآن، ولكن يخيل إلي أنك سترتبكين إذا كان هذا كل ما لديك لتلبسي.»

فقالت: «ماذا تعني بقولك... أنك ساومت خالي؟»

«لقد أفهمت خالك، وطبعاً ابنته، بأن هذه الملابس قد صنعت خصيصاً لجو كافونيا فقط. وقلت لهما إن اللايدي كاترين عندما تعود إلى انكلترا ربما ستختار زوجاً من أمراء السويد، النرويج، الدانمارك، بروسيا. وفي كل الأحوال ستكون الثياب التي أحضرتها إلى القصر هنا، ستكون غير مناسبة لأجواء تلك البلاد الباردة. فسألني خالك عما عسى أن اقترحه في هذا الشأن فأخبرته بأنني سأشتريها منه.»

فصرخت ثيولا: «وكيف... استطعت ذلك؟»

«لقد كان بيتلوس أخبرني أن خالك رجل بخيل جشع تماماً. فشعرت حيث أنه لم يعد هناك زواج ملكي، بأن

خالك لا شك نادم على كل ما انفقه على جهاز ابنته من مال.»

فسألته غير مصدقة: «وقد اشتريتها أنت منه... لأجلي؟»

«أظن أن خالك كان راضياً جداً عن اتفاقنا ذاك.»

«ولكن... ماذا قالت كاترين؟»

«لقد أصرت على أن تأخذ معها عدة أثواب لكي ترتديها في السفينة قبل وصولهما إلى مارسيليا.»

«وهل وافقت أنت على ذلك؟»

فقال: «طبعاً. لقد أرسلت بطلب ماغارا ثم أخبرتها ما عليها أن تحزمه لها.»

«وهل استغرق ذلك منها وقتاً طويلاً؟»

«كلا. وحالما أصبحت الحقيبة جاهزة، وضعت في عربة خالك ومن ثم انطلقا مغادرين بأقصى سرعة نحو كيفا.»

فتنهدت ثيولا بارتياح، ثم قالت: «لا أحب أن أفكر في أنك... أنفقت كل تلك النقود... لأجلي. فأنا أعلم كم كان جهاز كاترين غالياً.»

فقال: «ربما يريحك أن تعلمي أنني علمت بأن متعهداً فنياً جاء إلى القصر بأمل أن يشتري كل صور أجداد آل هانسبورغ لكي يبيعها في فيينا.»

فهتفت ثيولا: «آه، إنني مسرورة لاستطاعتك... التخلص منها.»

فقال: «هذا صحيح. فأنا لا أريد أبداً أن أرى وجوههم بعد الآن.»

فتمتمت: «أتساءل عما عسى أن تكون ماغارا قد حزمت لكاترين من أثواب.»

كانت تأمل في ألاّ يكون ثوب زفافها قد ذهب مع ابنة خالها. فقد كانت تريد أن تحتفظ به طوال حياتها.

فقال: «سأطلعك على سر صغير. لقد تكلمت مع ماغارا باللغة الكافونية، وطبعاً، لم يستطع خالك ولا الفتاة التي كانت تتوقع ذات يوم أن تكون ملكة هذه البلاد، أن يفهما الاوامر التي كنت ألقيتها إليها.»

«وماذا كانت تلك الاوامر؟»

«لقد قلت لماغارا أن تحزم ملابسك التي كنت أحضرتها معك من انكلترا... أن تحزمها هي وحدها دون ملابس أخرى.»

فشهقت ثيولا ونظرت إليه غير مصدقة: «هل أعطيت كاترين ثيابي... أنا؟ آه أليكسيوس كيف استطعت التصرف بهذا الشكل؟»

فقال بلهجة جادة: «يمكنها أن تضع، حين ترتديها، إكليل الجواهر على رأسها.»

وفجأة، انتبهت إلى الناحية الهزلية من هذا.

وحاولت أن تتصور ثورة كاترين عندما تفتح الحقيبة بعد إبحار السفينة لتجد تلك الملابس القبيحة القماش والطراز من الصوف والباتيستا وملابس السفر الرخيصة التي كانت زوجة خالها قد اختارتها لها متعمدة لكي تجعلها تبدو غير جميلة.

وضحك أليكسيوس فضحكت هي ايضاً.

قال لها: «هل تعلمين، يا عروسي الصغيرة، أنني لم

أسمعك تضحكين من قبل؟ يجب عليك أن تضحكي على الدوام.»

«آسفة لذلك... ولكنه كان برغمي.»

«إن الكافونيين يضحكون كثيراً عندما يكونون سعداء. وهم يحبون المزاح. وما فعلته، هو نموذج من المزاح الكافوني.»

فشهقت قائلة: «كم هو مضحك هذا. آه، يا أليكسيوس... هل رحلا حقاً؟»

فأجاب: «نعم، لقد رحلا. والآن حدثيني عن مبلغ أسفك لعدم ثقتك بي. كيف أمكنك أن تتصوري لحظة أنني، بعد أن أصبحت زوجتي، سأفرط بك وأدعك ترحلين؟»

فهمست: «آه، سامحني... سامحني أرجوك.»

«سأسامحك بشرط أن تعديني بألاّ تعودي إلى القيام بمثل هذا العمل مرة أخرى.»

كان يتحدث بجد كلي، فاحمر وجه ثيولا خجلاً، وقالت: «أنا شديدة الاسف... وأعدك بذلك.»

فقال: «لحسن الحظ، كان دينوس العجوز عاقلاً تماماً إذ أفرغ المسدس من رصاصاته.»

فسألته: «ألم يكن المسدس... محشواً؟»

فأجاب: «لم يكن محشواً، يا زوجتي الصغيرة. وهذه فرحة كافونية أخرى.»

فضحكت ثيولا وهي ترتجف.

كانت ما تزال غير مصدقة بأن الكابوس قد مر وانتهى، وأن الظلام قد تبدد، لتعود مرة أخرى إلى النور الذي بدأ يحيط بحياتهما على الدوام.

قالت له بلهفة: «كم أحبك. أرجوك أن... تعلمني ألاّ أكون... غبية أو خائفة.»

فأجاب: «سأعلمك أن تثقي بي. وأن تتذكري أنني لا أستسلم أبداً. فأنا الغازي على الدوام.»

فهمست تقول: «علينا أن نغزو كافونيا... بالحب.»

«سنقوم بذلك معاً... أنا وأنت.»

«وهذا كل ما... أريده.»

www.rewity.com
عيون

تمت

غزاه الحب

سافرت اللايدي كاترين مع والدها وابنة عمتها ثيولا إلى كافونيا حيث سيتم زواجها من الملك.

لكن كافونيا المسالمة كانت تغلي بالثورة بين ابناء الشعب، مما اضطر الملك وكاترين ووالدها إلى الهرب خارج البلاد، وترك ثيولا في القصر وسط ثورة قاسية.

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١.٥ دينار - مصر: ٤ جنيه - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال.